الفصل الثاني والعشرون

نماذج من خطب الفقيد

رأينا أن نختم الكتاب بنماذج من خطب الفقيد؛ لتتكون منها صورة بارزة من حياته الخطابية في مختلف مراحل جهاده، وقد اخترنا هذه النماذج من أربع من هذه الخطب: الأولى والثانية في إبان حياته السياسية سنة (١٨٩٦م)، والثانية سنة (١٩٠٢م) في منتصف سني جهاده، والثالثة سنة (١٩٠٧م) في أوج مجده الوطني.

١- خطبته بالإسكندرية

يوم ٣ مارس سنة ١٨٩٦م

سادتي وأبناء وطني الأعزاء:

ما اقتربت من مدينتكم الزاهرة حتى شعرت من نفسي بارتياح زائد وانشراح خاص؛ لأنني عهدتها وأعهدها مدينة الحياة الحقيقية ومهد الرجال المشهورين بالشجاعة والبسالة والإقدام، والمقابلة الودية التي قوبلت بها من كرمائها وساداتها قبل أن أقف بينكم الليلة خطيبًا زادتني حبًّا لها وميلًا لأهلها، وإني أحمل كل ذلك الإكرام من أهل الإسكندرية على عظيم رغبتهم في إعزاز مبدأ الوطنية الشريف لا على إكرام شخصي الضعيف.

ويسرني أن أحادثكم اليوم في شئون الوطن العزيز، هذا الوطن الذي تحبونه حبًّا مفرطًا، وتعملون لخيره وسعادته، وأراني موفقًا لحصولي على هذه الفرصة الثمينة التي أتبادل معكم فيها ما يختلج في نفوسنا من الآمال والأماني التي هي معنى الحياة والباعث القوي على العمل بجد ونشاط.

ويلزمني أن أقول لكم: إني قبل مبارحة القاهرة أخبرت بعض أصدقائي بأمر هذه الخطبة، فأشار عليَّ فريق منهم بعدم إلقائها، معللين ذلك بقولهم: «إنك إذا

ذهبت إلى الإسكندرية واجتمعت بأهلها وحادثتهم في مصائب مصر وآلامها ربما نتج عن ذلك شيء من هياج الأفكار، الأمر الذي لا تحمد عقباه؛ لأنهم شديدو الوطنية وأنت شديدها، وقد تدعو شدة الشعور بالواجب إلى ما يتجاوز الحدود أحيانا». وزاد بعضهم على ذلك قوله: «ولربما انتهز خصومك وخصوم الوطن العزيز هذه الفرصة لإحداث ما يقلق ويضر لتلقي التبعة عندئذ على أهل الإسكندرية وعليك أيضًا»، فخالفتهم في الرأي وجئت ثغركم الباسم معتمدًا على حكمتكم، اعتمادي على همتكم وشجاعتكم، وإن أفضل صفة اتصف بها أهل الإسكندرية هي ولا غرو معرفة الواجب والشعور الصادق بحقيقة الحوادث، والواجب اليوم على المصريين كافة إنما هو التمسك بالصبر والاعتدال أكثر من ذي قبل.

وقد اتخذتم يا أبناء الإسكندرية في كل بلاد مصر مثالًا للهمة والحماسة، فلتكونوا كذلك مثالًا صادقًا للدعة السكون والاعتدال لتصبحوا وتمسوا أساتذة لمصر كلها في تأدية الواجب نحو الوطن المحبوب.

ولقد أشاع عنكم بعض كثيري الظنون أن غيرتكم وحميتكم يستعملان أحيانًا ضد صالح البلاد، وأنكم تنفذون من حيث لا تشعرون مآرب ذوي الغايات بإحداث القلاقل، وكنت كلما أسمع مثل هذه الإشاعات أستغربها كل الاستغراب، ولي الحق في ذلك الاستغراب؛ لأن الغيرة التي تستعمل في غير موضعها تكون دوامًا أضر من البلادة والخمول، فلذا أناديكم -وإن كنتم أعلم مني بالواجب- مناداة محب لبلاده ولمدينتكم بنوع خاص، أن تنفوا باعتدالكم وسكوتكم تهمة من يرمونكم بحب الهياج والاضطراب.

ومثل مصر اليوم وهي على باب السعادة المقبلة مثل مريض قارب الشفاء ينصحه الطبيب بزيادة التحفظ وعدم التعرض للهواء؛ لئلا ينتكس بالعلة فتعود

عليه بويل أشد من ويلها الأول، فلنحترس جميعًا معشر المصريين من التعرض إلى ما وراء تعرض الوطن نفسه إلى خطر عظيم.

وإن صفتي التسامح والغفران اللتين اشتهرت بهما الأمة المصرية كانتا من أعظم الأسباب التي استمالت قلوب الأوربيين نحوها، وجعلتهم يعتبرون مصر كقطعة أرض من أوطانهم فهم يقطنونها آمنين مطمئنين، متمتعين براحة البال والبعد عن البلبال، ولذا وجدنا منهم على اختلاف جنسياتهم ومللهم نصراء أشداء للمطالبة بحقوق مصر وتحقيق رغائب أبنائها. ويفرحني كثيرًا أن أرى اليوم من أكابر وأعاظم القوم فيهم قد حضروا هذا الاحتفال ولبوا الدعوة بلطف وتكرم، وهو ما يدلنا على اشتراكهم معنا في الإحساسات نحو هذه البلاد العزيزة.

وأول مدينة في مدائن القطر سكنها الأوربيون ووجدوا من أهلها بشرًا وائتلافًا ولا جرم مدينة الإسكندرية، ولكم الحق يا أهلها وأعز أبنائها أن يفتخروا بذلك أعظم الافتخار، فداوموا أيها الوطنيون الأعزاء على إكرام وفادة ضيوفكم ونزلائكم الذين يشتركون معكم في الإحساسات نحو هذا البلد الأمين، وليكن مبدؤنا دائمًا «أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا».

وقد يفهم بعض الناس بالاعتدال الكف عن كل عمل يخدم البلاد ويسبب سعادتها، فتراهم مقصرين كل التقصير عن واجباتهم، وهؤلاء يخطئون الاعتقاد؛ لأن الاعتدال لا يفيد التهاون والإهمال، وما أجمل الاعتدال مع العمل على خدمة الأوطان.

وإن في مصر فئة من الناس نسيت أن الأمل داعي العمل، فلبست ثياب اليأس وقضت بظنونها على مستقبل الوطن العزيز، وجعلت مهمتها في الأمة تثبيط الهمم وإقعاد العزائم، فلا تنادي في المحافل والأندية إلا بأنه ليس لمصر حظ في المستقبل من الحرية والسعادة الاجتماعية، وأن شعبها قد مات من زمن طويل وليس لمفكر

عاقل أن يؤمل له مستقبلًا جديدًا، وترى رجال هذه الفئة اليائسة يرمون كل رجل بالدفاع عن حقوق البلاد المقدسة بعدم الخبرة وقصر النظر.

وعندي أن الرجال اليائسين وإن كانوا أقل من القليل يضرون بلادهم أعظم ضرر بما يقولونه ويكررنه؛ إذ إن قتل العواطف الشريفة وإخماد نار الغيرة الوطنية هما ولا محالة أكبر جناية تجني على الوطن وأهله، فليكن من واجباتنا أن نترك هؤلاء اليائسين في سفن يأسهم تصعدهم أمواج الأفكار وتهبطهم حتى تصل بهم إلى شاطئ الخير وبر الرفاهية فنذكرهم عندئذ بفساد مزاعمهم وخطأ آرائهم.

ولا تظنوا أيها الإخوان الأعزاء أن عملكم لخير بلادكم يقابل من الإنجليز بالازدراء والاحتقار، كلا ثم كلا، الإنجليزي الذي يحتقر مصريًّا يحب بلاده، ويدافع عنها بصدق وإخلاص يكون محتقرًا لنفسه ولقومه؛ لأنه هو وكل مواطنيه أول العاملين في الأمم على تقدم بلادهم، ولا يرضيهم أن تبقى سعيدة في داخلها فقط، بل يبذلون كل ما في وسعهم لاتساع نطاق مستعمراتها واستدرار الخير من موارده لها وحدها لا لغيرها.

وإذا ولجت موضوع الوطنيين المصريين إزاء الإنجليز، فأراني في حاجة لأن أستميحكم الإذن في التكلم عن مسألة الاحتلال وإبداء رأيي فيها بكل صراحة.

وليس من غرضي أن أطعن على الحكومة المحلية أو أنتقد على أعمالها، فكلكم تعرفون مواضع الخلل في الإدارة ومواضع الكمال والانتظام، وبديهي أن نواميس الوجود قاضية بسوء إدارة كل مصلحة وطنية يتداخل في شئونها تداخلًا فعليًّا رجال غرباء لا يفقهون لغة البلاد ولا يعرفون شيئًا من عوائد أهلها وأخلاقهم.

وليس غرضي كذلك أن أندد بحكومة جلالة الملكة أو بالأمة الإنكليزية؛ لأني أترفع عن أن أدافع عن بلادي بالطعن والسباب، فضلًا عما أحس به دائمًا من وجوب احترام الشعب الإنكليزي، وإنما الذي أريد ذكره وإيضاحه هو أن الخلاف حقيقة، الخلاف بيننا معشر المصريين وبين بعض الإنكليز هو: هل زمن الجلاء عن

مصر حان أو لم يحن، فدول أوربا ذوات المصالح في مصر تقول معنا: إن زمن الجلاء قد حان منذ أعوام، والمستر «غلادستون» زعيم الأحرار وأكبر سياسي إنكلترا يقول ذلك القول بعينه غير خائف لومًا أو تعنيفًا، وبعض أبناء التاميز يقولون ضد ذلك: إن زمن الجلاء لم يحن، وإن مصر في حاجة إلى وصي عليها.

وقد نرى بعض المتحزبين للاحتلال الأبدي -وهم ليسوا من الإنكليز، والإنكليز لا يستطيعون أن يكونوا على رأيهم- يقابلون مطالبنا الشرعية بالسباب والشتائم، فهل يستطيعون اليوم أن يقولوا عن المستر غلادستون: إنه عدو لبلاده كما يتهموننا بنكران الجميل؟

وبعيد عن ذهني أنه يوجد على الأرض رجل إنجليزي يحب وطنه حبًّا حقيقيًّا ويستطيع القول بأن إنكلترا تريد وضع يدها على وادي النيل، فإن ذلك الأمر -بل هذا الجزم العظيم- مناقض كل المناقضة لمصلحة إنجلترا نفسها ولشرفها العالي الشأن.

وإلا فهل يرضى أبناء إنجلترا أن يستعمل شرفهم آلة دنيئة لامتلاك بلاد حرة واستعباد أمة حرة؟ وهل ترضى الأمة البريطانية الغيورة على مقامها واحترامها أن يقال عنها: إنها لا شرف لها ولا احترام لكلمتها العلنية وعهودها الصريحة؟ إني لا أظن ذلك، وأعتقد أنكم كلكم على رأيي.

وهل تسمى المروءة مروءة إذا كان معناها أن أمة أوربية استغاث بها أمير شرقي فأغاثته ونصرته، ثم عملت ملكه واسترقاق أمته وشعبه؟

إذن فنقطة الخلاف الوحيدة بيننا وبين بعض الإنكليز هي أن زمن الجلاء على رأينا حان، وعلى رأيهم لم يحن إلى الآن، وعهد كل عاقل بالأمة الإنجليزية أنها إذا وقفت على الحقيقة وأرشدت إلى الصواب كانت في مقدمة أمم أوربا مطالبة بالجلاء.

وعسير على الأمة الإنجليزية الوقوف على الحقيقة إلا إذا قام فيها خطباء من أفرادها ومن المصريين أنفسهم يبطلون ما تذيعه (التيمس) وأخواتها من ذوي الأغراض السافلة من أن الإنجليز لم يقوموا في مصر إلى الآن بالواجب عليهم، ولقد سألنا شيخ الأحرار غلادستون أن يكون لأبناء جنسه المرشد لأمته عن حقيقة مسألة مصر وعن ضرورة الجلاء، وأملنا أن يجيب طلبنا ويحقق أمنيتنا.

ولكن إرشاد الأمة الإنجليزية إلى ما ينتظره المصريون منها وما يعتقدونه في شرفها لا يكون إلا برجال من أبناء مصر يقومون وينادون في كل بلاد أوربا بحقيقة أحوال مصر وأمانيها ليزيدوا من أنصارها، ويكون للوطن المصري من الأمم الأوربية نصراء عند مطالبته الأمة الإنجليزية بإجبار حكومتها على الجلاء.

ويكفينا لاستمالة الأمة الإنجليزية نحو مطالبنا الشرعية أن نقول لها بكل صراحة: لقد صار الشرقيون إلى ريب في احترامك لشرفك وشك في محافظتك على الوفاء بعهودك، فهل لك أن تطالبي بالجلاء عن مصر لتحققي للعالم كله بقاءك على عهدك الأول الشريف، ولقد غرر بك أيتها الأمة الخطيرة بعض ذوي الغايات وقالوا لك: إن الأمن لا يستتب في مصر وإن الخديوي لا يستطيع حكم بلاده برجاله؛ ليجبروك على الحكم بلزوم الاحتلال، فاعتقدي أن ذلك محض اختلاف وأن الأمن مستتب والأمة كلها مخلصة لأميرها محبة له.

وإلا فهل يرضى الإنجليز بأن يقال عنهم: إنه ليس في إمكانهم إعادة الأمن إلى ديار مصر بعد احتلالهم لها أربعة عشر عامًا؟

إذا قلنا ذلك للأمة الإنجليزية وعرفناها أننا لا نبغض الإنجليزي؛ بل نبغض المحتل من حيث هو محتل، ولو كان أقرب الناس إلينا؛ لأننا أمة حية متمدنة نريد أن نحكم أنفسنا بأنفسنا ولا نرضى أن نبقى قصرًا تحت حكم وصي ننظر إلى تقدم الأمم الأخرى نظره الكئيب التعيس دون أن نستطيع محاكاتها ومجاراتها، إذا قلنا لها ذلك وأسمعناها هذا الصوت «صوت الحق» كانت ولا ريب أول أمة قاضية على

الاحتلال، آمرة حكومتها بالإسراع بالجلاء؛ لأن من شأن كل أمة متمدنة تمدنًا عظيمًا كالأمة الإنجليزية أن تحترم الشعوب المطالبة بحقوقها العارفة بواجباتها.

وإذا كان صالح مصر يقضي كما قلت لكم بوجوب وجود خطباء من أبنائها يطوفون العواصم والمدائن في أوربا معلنين آراءهم مجاهرين بإحساساتهم، مطالبين بحرية بلادهم، فوجود خطباء مثلهم في مصر نفسها يرشدون الأمة إلى الخير ويحذرونها من الوقوع في الشر أصبح أمرًا محتمًا.

وغني عن البيان أن الصادق في حب بلاده لا يعرف إلا عند الحاجة، والوطني لا يسمى وطنيًّا إلا إذا خدم وطنه في شقائه، أكثر من خدمته له في رفعته وهنائه.

ولا ريب عندي في أنكم كلكم تودون مثلي أن تكون مصر بلادًا حرة، منتشرة في سائر أرجائها من الإسكندرية إلى منابع النيل أنوار العلوم والمعارف، وتصبح كما كانت مهدًا للفضائل والآداب، مشرقًا لشمس المدنية في بلاد الشرق، مسرحًا للتنافس في الصناعة والتجارة، مجمعًا آمنًا للأجانب ذوي المصالح فيها، طريقًا سهلًا للرائدين، لا ريب عندي في أنكم كلكم تحبون أن تنتسبوا لمصر إذ يكون هذا شأنها، يفتخر عندئذ كلٌّ منكم أن ينادي بأعلى صوته (أنا مصري).

ولكن ألا تحبون كذلك «مصرًا» خيم عليها الشقاء وحلَّ بها البلاء وسبقتها الأمم وأصبحت بعد في مصاف الشعوب القاصرة، تناديكم وأنتم حولها: «ألا فانصروني يا أيها البنين، ألا فارفعوا شأني بين الأمم واجعلوا لي مكانًا فسيحًا بين الشعوب المتقدمة الحية، أجل! أجل! تحبونها ويجب علكم أن تحبوها وتحنوا عليها كما يحن المرء على أمه الشفاء إذا اعتلت ويسعى في خدمتها ويبحث عن دوائها.

ولا يكن حبكم واقفًا عن حد الحب وحنانكم عند الحنان؛ بل ليتجاوزوا ذلك العمل لخيرها وإعلاء شأنها.

وثقوا أيها الوطنيون الأعزاء بأن المستقبل لكم ولها، فاعملوا لسعادتها، وتذكروا قول غمبتا الشهير: «ليس المستقبل بمستعص على أحد». نعم لنعمل لسعادة الحال والاستقبال، وننفذ ناموس الطبيعة لئلا نخرج أنفسنا من نوع الإنسان ذلك الناموس القاضي على كل فرد بالعمل حتى تستريح النفس في السكينة والظلام.

ولقد كنت أحضر في أوربا مجتمعات يتردد عليها كثير من الغربيين ذوي الجنسيات المختلفة، فكان كل يفاخر القوم ببلاده وذويه؛ الأمريكاني بحرية أوطانه وشرف تاريخها وحسن نظامها وكبار رجالها، والفرنساوي بشهامة أبناء وطنه وفضل جنسه على النوع الإنساني وحرية مبادئه وشرف تاريخ بلاده العظيم، والألماني والإنجليزي وغيرهم كذلك، وأنا أنظر الجمع وأسمع الجميع وقلبي فائض حزنًا وفؤادي ممتلئ كآبة وعيناي مغرورقتان بالدموع، وليس يجري على لساني غير ذكر مصائب مصر وآلامها، فهل لنا أن نفاخر بالأمم يومًا من الأيام ببلادنا وأوطاننا؟! هل لنا أن نكون أمة حية قوية محترمة؟! إني أؤمل ذلك، آمله من صميم فؤادي.

ومستحيل علينا أن نصل إلى السعادة التامة ونفوز برغائبنا الوطنية إلا إذا اتحدت كلمتنا واجتمعت قلوبنا على محبة البلاد بصدق وتجرد عن الشخصيات، فلنتحد قلبًا ولسانًا، ولا يكن مثلنا مثل عائلة اشتعلت النار في دارها وأفرادها متباغضون، فبدلًا من أن يجتمعوا لإطفائها أخذوا يتنازعون ما أبقته يد النار من المتاع، غير ناظرين إلى النار تصل إليهم فتحرقهم وتحرق متاعهم وتقضي على دارهم القضاء الأخير إذا لم تُزل الشقاق من بينهم ويجتمعوا على إطفائها.

وإنَّ يومًا تجتمع فيه قلوبنا على محبة البلاد وخدمتها وتتحد فيها كلمتنا يكون يوم تحقيق الآمال وعنوان سعادة حال والاستقبال، ويحق لنا فيه أن تقف أمام الأمم كافة، وننادي بأعلى صوتنا وبكل فخار: (نحن بنو مصر الأحرار).

٢- خطبته بالفرنسية في الإسكندرية

يوم ١٣ إبريل سنة ١٨٩٦م (تعريب الخطبة)

أيتها السيدات، أيها السادة:

إني أقف بينكم متكلمًا وانفعال نفسي عظيم، ولقد كان بودي أن أعتذر للذين شرفوني بدعوتي إلى إلقاء هذه الخطبة لو لم يكن إحساسي بالواجب عليَّ دعاني لإطاعة أمرهم والانصياع لرغبتهم؛ فجئت إلى هذه الحفلة وفؤادي منشرح لأني أخاطب نخبة نزلاء الأوربيين أولئك العاملين بالنشاط، الذين هم بيننا طليعة المدنية الغربية (تصفيق شديد)[1].

ومما يزيدني سرورًا أني واقف أمام جمعية أصدقاء لبلادي أوفياء لها، لم يقصدوا بمجيئهم هذه الليلة سماع خطيب بليغ؛ بل جاءوا ليظهروا علامة ودهم لوطني ضعيف ولمسألة مصر الشريفة الحقة.

أجل أيها السادة، يتكلم الإنسان أمامكم بكل ارتياح وافتخار عن الأوطان، ويدافع عن حقوقها المهضومة، ويطلب لها مستقبلًا سعيدًا، فإنكم كلكم تنسبون إلى أوطان شريفة حرة سعيدة، وتحبون هذه الأوطان وتعشقونها عشقًا صحيحًا، ولا استطاعة لكم غير الموافقة للذين يحبون أوطانهم مثلكم. (تصفيق متضاعف).

وإننا معشر المصريين نحب مصرنا الأسيفة بكل إخلاص، ولا نود لها شيئًا آخر غير يقظتها وسعادتها؛ ولكن من سوء الحظ يوجد في هذا البلد طغمة من الرجال يطعنون أشد الطعن على الوطنيين، ويدعون مع ذلك أنهم المدافعون عن الاحتلال الإنجليزي، على أنهم لو كانوا حقيقة المدافعين عنه لحسبوا عارًا عليه وخجلًا، فإن إنجلترا نفسها لا تستطيع أن تبغض أو تحتقر مصريًّا وطنيًّا؛ إذ من ضمن الأسباب

(١) لم يتيسر في غير هذه الخطبة معرفة المواضع التي صفق فيها بالضبط الحاضرون، أو التي أظهروا فيها علامات الاستحسان.

التي تنتحلها لنفسها للإقامة في مصر تربية المصريين، فهل من الجائز أن يكون المصريون حسني التربية من غير أن يكونوا وطنيين محبين لبلادهم؟ كلا! (علامات استحسان).

ولقد كان أولئك الذين يدعون الدفاع عن الاحتلال الإنجليزي يزعمون أنهم أوقفوني إلى الأبد؛ إذ يظنون بسذاجة لا مثيل لها أن الإجحاف الذي لحق أخيرًا بأحد إخواتي[1] يضعف قواي أو يوهن عزيمتي أو يقلل مجاهدتي في سبيل سعادة بلادي، فأخطأوا الظن لأنني بعيد عن أن أملَّ، وسأستمر بقدر استطاعتي في المدافعة عن وطني العزيز، سأستمر -ولا يوقفني في طريقي إلا الموت- في وصف مصائب مصر وآلامها والمناداة في كل مكان بحقوقها المقدسة، والمطالبة بحريتها واستقلالها. (تصفيق شديد متواتر).

وإنا نعلم أننا بدفاعنا عن مسألة بلادنا الشريفة وبتقديسنا لها نعرض أنفسنا للضرر والخطر، ولكن اعتقدوا جيدًا أيها السادة أن همتنا لا تفتر أبدًا، لحق بنا ضرر أم لا. (تصفيق واستحسان).

فليس هناك من شيءٍ أجمل في عين الوطني من المجاهدة في سبيل بلاده، فضلًا عن أن المجاهدة بالنسبة لنا ليست أمرًا صعبًا؛ إذ ضد من نجاهد نحن؟ أضد الأمة الإنجليزية؟ كلا، ليس جهادنا ضدها؛ إنما هو ضد فريق من الناس يعملون لتأييد الاحتلال الإنجليزي في مصر إلى الأبد قضاء لأغراض شخصية أو أملًا في تحقيق مآرب ذاتية.

أجل! إنا نجاهد هذه الفئة التي أعضاؤها أعداء للحقيقة، وضدهم وحدهم نبذل كل قوانا، فإنهم وحدهم الآثمون الحقيقيون في مسألة مصر، فهم ينشرون في

(١) يشير الفقيد إلى اضطهاد الإنجليز شقيقه علي فهمي كامل (بك)، وكان وقتئذ ضابطًا بالجيش المصري. (انظر ص٨١).

كل مكان عن حالتها الأخبار الكاذبة ويخلقون كل يوم حججًا سافلة واهية؛ لإطالة أمد الاحتلال البريطاني، وهو الحمل الثقيل الذي لا يستطاع تحمله (تصفيق).

ومن سوء حظ أولئك المشهورين بالمبالغة في الدفاع عن إنجلترا أن أعمالهم توصلهم غالبًا إلى نتائج مخالفة للغرض الذي يعملون له؛ لأنه كما قال حقًّا فيكتور هوجو: للحقيقة والحرية مزية خاصة بهما، وهي أن ما يعمل ضدهما وما يعمل لهما يخدمهما على السواء. (تصفيق شديد).

أمَّا فيما تختص بالأمة الإنجليزية فلا نستطيع إلا احترامها، ومهما وقع فإننا نحترمها دائمًا، كما نحترم كل الأمم الأخرى؛ إذ إنه لا يصح بغض أية أمة ولا يقضي على شعب من الشعوب بخطأ بعض أفراد من أبنائه، وإنا نعلم حق العلم أنه إذا كانت الأمة الإنجليزية موافقة على الاحتلال راضية به، فذلك إنما هو لكونها جاهلة لحقيقة إحساس المصريين؛ لأنها لو كانت تعلم إحساسنا لأظهرت عدم رضائها باحتلال ضار كهذا الاحتلال، ولكانت ولا محالة قضت عليه (تصفيق). ولكن واأسفاه قد تساق الأمم غالبًا في أجهل السبل على يد من تثق به أكثر من غيره!

ولئن قالوا: ليس في السياسة شيء من الشرف، وإنها ليست شيئًا آخر غير الكذب والخيانة، فإننا لا نستطيع أن نتصور طرفة عين أن أمة بلغت من العظم والمدنية مبلغ الأمة الإنجليزية تجسر يومًا من الأيام على أن تخون علنًا سريرتها، وتحتقر أمام الناس شرفها (تصفيق شديد متواتر)، فإنها على نسق كل الأمم غيورة على كرامتها التي يهدرها ولا محالة أن تطيل الاحتلال الإنجليزي إلى أمد غير محدود.

وكل الذين يعرفون للشرف معنى يعتقدون مثل غامبتا «أن ليس هناك سياسة حقيقية فعلية مثمرة إذا اعتدت القوة ولو لزمن مؤقت سريع الزوال على المبادئ الراسخة للعدالة والإنسانية» (تصفيق عظيم متواتر).

وإن هذه السياسة المؤسسة على مبادئ العدالة والإنسانية هي السياسة الحقيقية بالأمة الإنجليزية، هذه الأمة التي لا تزال محترمة معتبرة عند جماعة مقهورين مثلنا،

عند الذين يريد بعض سواسها أن يضحوهم هم ومستقبلهم في سبيل نجاح آمالهم الباطلة.

لقد رأينا من عام (١٨٨٢م) أشد المناظر وقعًا على النفوس، رأينا أكثر من (٦٠) ألف مصري ماتوا في التجريدات التعيسة لأعوام (١٨٨٣ و١٨٨٤ و١٨٨٥م)، رأينا تقهقر التعليم والتربية، رأينا انحطاط الآداب العامة وفقر الفلاح والوطن نفسه، وكم رأينا من أشياء مؤلمة ومناظر مفتتة للأكباد، ومع ذلك كله قد حافظنا على سكينتنا وبقيت ثقتنا عظيمة بالأمة الإنجليزية وبوعودها وبشرفها. (تصفيق طويل).

واليوم يسيئون مقابلة تساهلنا وصبرنا وسكينتنا، ويخاطرون بإلقاء البلاد وأبنائها في هاوية.

أجل أيها السادة يخاطرون بإلقائنا في أعمق الهاويات وأخطرها، وإني أريد أن أتكلم على حملة السودان.

أما من جهة استرجاع السودان فكلنا نريده، وكلنا يجهر بذلك علنًا كل يوم، فإننا نعتقد اعتقادًا صحيحًا أن مصر بدون السودان تكون أحقر أرض وأفقر بقعة في الدنيا، وبطلبنا جلاء الجنود الإنجليزية عن بلادنا لا نطلب فقط تحرير مصر من الإسكندرية إلى وادي حلفا؛ بل نطلب تحرير كل وادي النيل، لا يمكن أن يحكم النيل كله إلا بحكومة واحدة. (علامة استحسان).

وإنا نود من صميم أفئدتنا أن نسترد المقاطعات السودانية التي هي لبلادنا روحها نفسها، وإنني قد أعلنت من جهتي هذا الإحساس عدة مرات، وقلت منذ خمسة أسابيع لأبناء وطني من أهل الإسكندرية: إن أعظم واجب على سمو الخديوي عباس باشا هو إعادة أملاك مصر المفقودة إليها، وأنا أعيد هذه الليلة ما قلته وما أقوله دائمًا أبدًا، ولكنا ما أردنا قط ولا نريد أبدًا أن نسترجع السودان تحت قيادة الإنجليز. (تصفيق شديد).

فإن وجود الإنجليز على رأس جيشنا يكفي وحده لعدم نجاح الحملة، يكفي لتحقيق مصيبة عظيمة، وبوجودهم على رأس الجيش يحفرون بيننا وبين السودانيين هوة من أعمق الحفر تؤخر لزمن مديد صلحنا معهم، أولئك الذين كانوا من رعايا الخديوية المصرية.

وفضلًا عن ذلك فإن الذي يجعل المصريين ناقمين من حملة دنقلة إنما هو سوء المقصد الذي يبدو عند كثير من رجال إنجلترا السياسيين عندما تتكلم الدول بشأن الجلاء عن مصر، فإنا لا ننكر هذه الحملة فقط لكونها داعية لتعريض كل جنودنا لخطر عظيم، وأن من إحدى نتائجها التي لسوء الحظ تبدو لنا مؤكدة إنشاء جيش جديد، وجعل العساكر الإنجليزية تحتل مصر كلها في الحدود كما في المدائن. ولكننا ننكر هذه الحملة بنوع خاص لأنها نؤخر لزمن طويل تحرير بلادنا (تصفيق شديد).

أجل أيها السادة، إنها تؤخر تحرير بلادنا، وهو التحرير الذي نتمناه من كل قلوبنا والذي طالما وعدنا به. ذلك لأن إنجلترا قد كشفت بيدها الغطاء عن مقصدها، وليس هذا من الوقت الحاضر فقط؛ بل من سنة (١٨٨٧م) عندما أراد السير دورمندوولف أن يعقد مع جلالة السلطان الاتفاقية المشهورة، فإن جملة من المادة الخامسة كانت تشير إلى ذلك بالعبارة الآتية:

«إذا ظهر في ذلك الوقت -يشير إلى الوقت الذي عين للجلاء؛ أي عام (١٨٩٠م)- خطر داخل مصر أو خارجها، وكان ذلك الخطر يستوجب تأجيل الجلاء تنسحب الجنود الإنجليزية من مصر بعد زوال ذلك الخطر».

فيفهم إذن من اتفاقية وولف أنه كان يخشى ظهور خطر ما في وقت الجلاء، وبعبارة أخرى كان في الحسبان أمر مسألة السودان وما يجري بيننا اليوم؛ إذ إن خلق الاضطرابات وإيجاد الأخطار ليسا بالنسبة للسياسة الإنجليزية إلا أقل ما تنتجه يد التصنيع. (تصفيق مستمر).

وإذا كانت إنجلترا تريد بصدق نية وكرم أخلاق أن ترد السودان إلى مصر، فكان يكفيها لبلوغ هذه الغاية أن تنجلي عن القطر؛ فإن الجلاء وحده يعيد لنا السودان.

لما ذا بقي السودانيون مصرين على عصيانهم ضد مصر؟ لماذا لا يقبلون أي اتفاق معنا؟ لا ينكر أحد في العالم أن وجود الإنجليز في مصر هو الذي جعلهم بهذه الحالة. (علامات استحسان).

وبعد أن فنَّد الخطيب الحجج التي يتذرع بها أنصار الاحتلال لبقائه، رد على تهمة التعصب الديني المزعوم للمصريين؛ قال:

أجل لنتكلم قليلًا عن هذا التعصب الخيالي الذي يقول أعدؤنا: إنه في نفوسنا. إن أعداء مصر يريدون أن يمثلونا أمام أوربا بهيئة قوم متوحشين مستعدين لإفناء كل أوربي ساكن بلادنا متى رحلت العساكر الإنجليزية عنا. لقد تطرف في هذا الادعاء أولئك الأعداء، فأرادوا أن يغشوكم أنتم أنفسكم ويسخروا من سلامة نيتكم، حيث يكررون أمامكم في الجرائد وفي كل مكان هذه الأكاذيب وهذه الوشايات، كيف ذلك أيتجاسرون على أن يقولوا أمامكم هذه الأقوال أنتم يا أوفى أصدقاء مصر وأعز ضيوفها؟ كيف يستطيعون أن يغشوكم بدناءة كهذه عن صفات أمة مودتها لكم علانية؟ أمة قابلتكم -ونقول ذلك بأعظم فخار- بأوسع كرم وسخاء! إن القول بتعصبنا إنما هو أدنأ أكذوبة.

الأمة المصرية متعصبة! وامصيبتاه! أَمَا ترون بأنفسكم أيها السادة أنه إذا كانت في العالم أمة صفتها الخصوصية اللطف والوداعة، فإنما هي ولا شك الأمة المصرية، فإن الكثير من الأوربيين يعيشون بأعظم سكينة في القرى مختلطين اختلاطًا دائمًا مع الفلاحين؛ أي مع أكثر الناس تمسكًا بالدين، والبعض منها يتاجرون في تجارتي الربا والخمور المحرمتين في الدين الإسلامي. كل ذلك مع ما لهم مع الفلاحين من حسن العلائق، فهل هذا من التعصب؟

هل احتجتم مرة من المرار إلى عضد عسكري إنجليزي ضد مصري ما؟ هل يستطيع خصومنا أن يثبتوا أن جيش الاحتلال يحميكم ضدنا؟ وأن وجود العساكر الإنجليزية ضروري لسلامة حياتكم بيننا؟ كلا أيها السادة، كلا. (تصفيق شديد جدًّا).

ليفتش أولئك الذين يتهموننا بالتعصب في كل تاريخنا، وليجئوا إذا كان الأوربي في زمن من الأزمان أسيئت معاملته، من الجائز أن يذكرنا الخصوم بالذكرى التعيسة للثورة العسكرية المشئومة التي كانت سببًا في مصائب عديدة؛ ولكن كل رجل عاقل عادل يقول معنا: إن تجاوز الحدود يقع كثيرًا في المظاهرات الأهلية الكبيرة، والدليل على ذلك الثورة الفرنساوية، ولقد حصلت في كل البلاد اضطرابات، وهي حاصلة الآن وتحصل في المستقبل، وفضلًا عن ذلك فإن التاريخ سيوضح لنا إذا لم تكن هذه الاضطرابات حدثت بأعمال رجال كان لهم قصد مخصوص. (تصفيق).

ولماذا نذهب للبحث في التاريخ برهانًا على تسامحنا الديني؟ أليس أمام أعينكم اليوم أسطع البراهين على هذا التسامح الديني الجميل؟ أتظنون أنه إذا كانت أمتنا متعصبة أما كانت تنتهز الآن فرصة غياب كل قوة عسكرية ذات شأن لكي تقوم وتحدث أي اضطراب؟ أتظنون أنه إذا كانت الأمة المصرية متعصبة، هل كانت تسمح أبدًا لأبنائها أن يذهبوا لمحاربة أمة أشد تمسكًا بالإسلام منها؟ أليس الذين يدعون أننا متعصبون في الدين يظهرون أنفسهم بمظهر السخرية عندما يقولون كذلك: إن الأمة المصرية يزداد تعلقها بالاحتلال؟ كيف إذن تكون الأمة في آنٍ واحد متعصبة في الدين ومحبة للإنجليز؟! (تصفيق عظيم جدًّا).

إنَّ لأعدائنا مقصدين من القول بأننا متعصبون في الدين، إهاجة الأمة، وإلقاء بذور الشقاق بين الأوربيين والمصريين، ولكن من حسن حظ مصر أن الأمة محافظة على السكينة عارفة بقيمة الاعتدال الديني وحسن معاملة الأوربيين. (تصفيق).

فلقد تعارفت أوربا ومصر منذ قرن وأحبتا بعضهما، فاعتبرت أوربا مصر قطعة منها -قال ذلك وأحسن القول الخديوي إسماعيل- ومصر اعتبرت كذلك وجود الأوربيين بيننا كضمانة للتقدم والرفاهية. (تصفيق طويل).

وإنا نعلم جيدًا أيها السادة أنكم أحسن نصراء الجلاء؛ لأنه من جهة موافق للعدالة والشرف الدولي، ومن جهة أخرى لأن مصالحكم قاضية به. أجل إن من صالح الأوربيين النازلين في مصر أن يتحقق الجلاء؛ لأنه إذا صارت إنجلترا مالكة لمصر تصير حياة الأوربيين على شواطئ وادي النيل من الأمور المستحيلة، فإنكم هنا وكلاء المدنية الأوربية في العلوم والفنون، كما أنكم وكلاؤها في التجارة والصناعة (استحسان عام)، واليوم الذي تصير فيها إنجلترا صاحبة مصر تضع يدها على كل شيء، غير تاركة شيئًا ما لأحد، وتدعي عندئذ أنها الوكيلة الوحيدة للمدنية أمام وادي النيل.

إننا معتقدون كل الاعتقاد أن اليوم قريب حيث نترك وراءنا ماضيًا مملوءًا بالحوادث لنسير سواء ويدنا في يدكم على طريق التقدم نحو أسطع مستقبل. (تصفيق عظيم).

ومتى تخصلنا من هذا النظام الإداري الذي وجهته فائدة بريطاني العظمى وخرجنا من هذا الشتاء الطويل الذي استمر أربعة عشر عامًا، والذي كاد يميت أعضاءنا نعيد السير ثانيًا، واثقين من حقنا ومن عطف الشعوب كافة وعدالتها. (تصفيق شديد).

وفي ذلك اليوم يكون تقدم مصر باهرًا.

ومتى تخلصت التجارة من الملل الذي يسببه لها الاحتلال الإنجليزي فستفتح لنا ولكم آفاقًا ذهبية. (تصفيق).

ومتى تخلصت الصناعة من العوائق التي يخلقها لها الإنجليز في الجمارك لغاياتهم، فسترقى الصناعة الأهلية وتعود فائدة رقيها على أبناء مصر وعلى ضيوف مصر. (تصفيق شديد).

عندئذ يعقب الأزمات الكثيرة المتوالية السلام، وتعقب الريب والشكوك الثقة، ويعقب الموت الحياة. (تصفيق متواتر).

فلنتمن جميعًا أيها السادة تحريرًا عاجلًا لوادي النيل وسعادة أبدية لهذه الأرض العزيزة؛ أرض الفراعنة الأمجاد. (تصفيق شديد متواصل وتهليل عظيم).

LA QUESTION DEGYPTE CONFERENCE

FAITE A AL EXANDRIE LE LUNDI ١٣ AVRIL ١٨٩٦

PAR

MOUSTAFA KAMEL

ALEXANDRIE

TYPO-LITHOGRAPHIE CENTRALE I DELLA ROCCA ١٨٩٦

عنوان الرسالة التي طبعت فيها خطبة مصطفى كامل بالإسكندرية يوم (١٣ إبريل سنة ١٨٩٦م)[1].

٣- خطبته في العيد المئيني لولاية محمد علي

٢١ مايو سنة ١٩٠٢م

عمل محمد علي وواجبات المصريين نحو وطنهم

سادتي وأبناء وطني الأعزاء: إني إذا وقفت الليلة أمامكم لأذكركم بمجد مضى وعظمة خلت، وأحيي معكم أكبر تذكار في حياة مصر والمصريين، فإني أعلم أنكم

(١) من وثائق المرحوم الدكتور صادق رمضان. وقد تلقينا أصل الرسالة من حفيده النقيب جعفر الصادق رمضان. وكان الدكتور صادق رمضان من أصدقاء وأنصار الزعيمين مصطفى كامل ومحمد فريد.

جئتم مرتاحين لسماع هذا الخطاب، وأنكم ترون مثلي أن خير احتفال يقام لأكبر عامل من عمال المجد المصري، هو المقارنة بين أيامه وأيامنا، وأعماله وأعمالنا، واستنباط عبر التاريخ النابعة، وعظاته البالغة، وتمثيل الوطن في مجده وعظمته وإظهاره للعيون والأبصار على حقيقة الحالة الحاضرة، أسيفًا كئيبًا حزينًا، مرتديًا ثياب الحداد، باكيًا على أيام كان فيها حامل الشرف والفخار بين الممالك والأقطار؛ أي حال حال مصر في هذا اليوم بعد مرور مائة عام هجرية على الحادث الخطير والأمر العظيم الكبير، على اجتماع الأمة واتفاقها حول رجل واحد واختيارها له أميرًا عليها يدبر شئونها ويرفع شأوها ويعلي مقامها؛ أي حال حالها؟ وأي موقف موقفها؟ وهي التي ملأت الدنيا دويًّا ونافست أقوى الممالك في جلالها، ثم انحدرت انحدار السيل من قمة ذلك الموقف العالي حتى هوت إلى هاوية ذل وانحطاط وصارت مثالًا للمسكنة والهوان!

صبرًا أيها الوطن المحبوب على بلواك! فما ازدحم بنوك اليوم إلا لينشدوا أكبر العصور وأجل الأيام، ويجمعوا أمرهم بينهم على إحيائها بالجد والعمل والوفاق والوئام، صبرًا أيها الوطن العزيز صبرًا! فقد ناجت الضمائر وتفاهمت النفوس والخواطر، وشعر كل مصري بأنه الوارث لأفضل الأوطان وأعز البلدان.

صبرًا صبرًا! فمن يرى ذلك الظل الممدود، ظل مؤسس العائلة الحاكمة (محمد علي الكبير) ويبصر بعين بصيرته روحه الطاهرة ترفرف فوق الرءوس ويسمع صوته العالي يذكر المصريين بأقدس الواجبات نحو الوطن وأهله، وينظر بعين الحقيقة إلى يده القادرة العاملة، مشيرة إلى سبيل الفلاح والرقي، من ذا الذي يرى ويبصر ويسمع ذلك ولا يعتبر؟ من ذا الذي ينتسب بدمه أو بماله أو بعلمه إلى ذلك الرجل العظيم ولا تصغر نفسه في عينه إذا رآها نفس رجل دون الرجال؟

من ذا الذي يذكر منا مجد مصر في عهد ذلك الأمير، ولا يذكر أنه مسئول عن زواله مطالب باسترداده؟

أسمع المعترضين يقولون: عجبًا عجبًا! أيؤمل الخطيب أن تنال مصر في حاضر الأيام أو في مستقبلها ما نالت في غابرها، وتلبس من جديد ذلك الثوب الباهر الفاخر الذي حسدتها عليه الليالي والحوادث وسلبته منها يد الغدر والانتقام؟

أجل أيها السادة! إن للمصري أن يؤمل لبلاده مجدًا كمجدها الماضي وعزًّا وسؤددًا وجلالًا، كيف لا وحياة (محمد علي) وأعماله كلها دروس ترشد المصريين إلى أن تاج المجد لا يوضع إلا على رأس العامل المجد، وأن رايات الفخار لا تنال إلا بالعمل والجهاد، وأن أمة فتحت البلاد والأمصار يوم كانت لا تتجاوز ثلث عددها اليوم قادرة على بلوغ غاية العز والرفاهية ونيل أسمى ما يرام من الحضارة والعمران.

كيف سار (محمد علي) بمصر، وكيف أنقذها من مهاوي الهلاك، وكيف أخرجها من عالم الظلمات إلى النور، وكيف فتح بها وضرب وغلب، وكيف ساد ولم يُسد، وكيف ملأ من جنودها الديار وأخضع لسلطانها البحار والأنهار، وكيف رفع ذكرها إلى أعلى منار وجعلها عاصمة الشرق ومصدر الأنوار، وكيف أبهج هذا الثغر بتزاحم الجواري في ثغره، وعمم المعامل والمصانع في المدائن، والقرى ونشر المدارس والمكاتب في أنحاء البلاد، وأخرج من أبنائها نجوم علم يتهدى بهم ولا يضل بنورهم؟

كيف وفق هذا الرجل العظيم لهذه العظائم؟ كيف أباد المفسدين والظالمين وجمع القطر تحت لواء واحد، وكان ألف قطر في وطن واحد؟ هل استعان بغير المصري على تحقيق غاياته أم استعار أمة من حديد ورجالًا من صلب وأرواحًا شبت بين الموت والنار حتى أوتي ذلك الجلال ونال من العظمة ما نال؟

كلا! لم يصل إلى ذروة المعالي وأقصى غايات الرجال إلا بعقلك وبأسك أيها المصري العزيز، فسلامًا وألف مرة سلامًا على هذا العزم المقبور وهذه الهمة المدفونة، سلامًا على من نسى نفسه بعد أن أنسى العالم كل إنسان سواه.

سلمت الأمة المصرية أمرها لمحمد علي والبلاد ممزقة بين المماليك يذيقونها أنواع العذاب والنكال، والشرع في أيديهم شرع الجور والاعتساف، والقانون في قبضتهم قانون الظلم والاستبداد، والبلاد منقسمة على نفسها، اسمها مصر وهي ألف قطعة وقطعة، لا جامعة بين أهلها ولا رابطة بين بنيها، ولا راحة ولا نعيم ولا حرية ولا عمل!

تولاها الرجل العظيم وهي عليلة ضئيلة لا حراك بها، فقطع دابر المفسدين والأشرار وأزال دولة المماليك كما يزول الغبار، وانقضت تلك السلطة المربعة التي قوضت أركان الدين والعقيدة وهدمت بنيان الوطن والأمة، وما تركت فضيلة حتى جنت عليها ولا رذيلة حتى مجدتها، انقضت وكأنها ظل زائل أو سحابة صيف لم تدم إلا قليلًا، انقضت والعالم بين مصدق ومكذب يتساءل: كيف أتيح لرجل واحد أن يحول مجرى الليالي والأيام ويغير تيار الحادثات العظام؟

مضت أيام المماليك ووقف (محمد علي) ناظرًا إلى هذه الأمة ليرى أمر تقدر عليه وأي عمل تستطيع، فرآها بعد عهد الشقاء وزمن البلاء وأيام المحن والفتن قادرة على القيام بأعظم الأعمال، فيها من روح الحياة وقوة النهوض ما يزحزح الجبال الراسيات وتخر أمامه الشم الثابتات، فجنَّد من أهلها الجند، وأي جند جند؟ جند الغزاة الفاتحين حملة النصر والفخار، جند من المصريين قومًا لا تراهم أمة حتى تسلم وتستسلم، جند من أعلوا مكانته ورفعة رايته وجعلوا اسم مصر في كافة الأرجاء والآفاق عنوانًا للمجد الرفيع والشرف الصحيح.

أخرج من أولئك الفلاحين الذين طالما تصرفت فيهم الكوارث كما شاءت أبطالًا وشجعانًا اهتزت الأرض تحت أقدامهم إجلالًا وإعظامًا، وعجزت جيوش العالم عن مجاراتهم ومناظرتهم، بعث (محمد علي) من السكينة عزمًا، ومن السكون همة وإقدامًا، وسار جيشه من مكان إلى مكان حاملًا لواء الظفر والغلبة، فائزًا في كل بقعة بالنصر والفخر، فما هذه الروح العجيبة التي نقلت بني مصر من حال إلى حال حتى

صار الجريح يأبى أن يغيب عن ميادين القتال، والطفل ولوعًا بمناظر الحرب والنزال؟ ما هذا التغير الفجائي الذي اندهش لآثاره العالم طرًّا؟ وأي سر جعل الأمة المهضومة الحقوق المسلوبة الإرادة أمة فتح وغزو وفوز ونصر؟

السر في هذا الانقلاب وذلك التغير أن الرجل العظيم الذي تولى أمر مصر أدرك بواسع عقله أن في أمتها كنوزًا من الشهامة والذكاء مدفونة، فكشف عنها الغطاء وأظهرها للعالمين ساطعة بهية تخطف الأبصار. السر في ظهور المصريين على مسرح العالم بمظهر الفاتحين القادرين أن (محمد علي) لم يترك لليأس سلطانًا على نفسه، ولم يقف في طريقه لأول عائق حاول منعه عن العمل؛ بل اجتاز المصاعب والعقبات بعزيمة ماضية وثبات دونه الحديد قوة وبأسًا.

اجتاز المصاعب ولم يرضه أن تكون مصر قوية في البر ضعيفة في البحر، فوهبها أسطولًا ضخمًا لم يمض على إنشائه وتكوينه أكثر من أربع سنوات، وهيهأ أسطولًا كان في الصف الأول من أساطيل العالم تباهي به الإسكندرية ثغور الأرض، وهو يباهي بها وبوادي النيل الدنيا ومن عليها.

كان الغربيون إذا جاءوا مصر زائرين يقفون أمام هذا الأسطول حائرين مندهشين[1] بهرتهم عظمة مصر وارتقاؤها سلم المعالي في قليل من الأعوام.

ما عساي أقول اليوم عن جيش مصر وأسطولها، ولو نقلت إليكم كتابات المنشئين والمؤرخين، وآراء جماعات الكتاب عنها لخلتم هذا الوطن غير ذلك الوطن ومصر غير مصر، ولظننتم أن حادثًا استثنائيًّا محا أمة عاداها الزمان فلم يترك لها إرادة ولم يلبسها غير لباس الوهن والاستسلام.

رددوا الظرف معاشر المصريين في صحف التاريخ، تروا أن مصر لم تكن ميدانًا للجنود والبحارة الممثلين لرفعة قدرها ليس إلا؛ بل تبدو لكم مصر المحبوبة فوق

(١) انظر تأييدًا لذلك ص٣٣٠.

ذلك في مصاف الأمم الصناعية ذات الشأن الأول، تبدو لكم المدائن والقرى مزدحمة بالصناع والعمال يحيون أطيب حياة ويخدمون الأوطان أشرف خدمة، تبدو لكم بولاق والخرنفش وشبرا وقليوب وشبين والمحلة الكبرى وزفتى وميت غمر وفوه ومنوف وابيار والأشمونيين والمنصورة ودمياط ودمنهور ورشيد والإسكندرية والروضة والجيزة وبني سويف والمنيا وأسيوط وأبو تيج وفرشوط وملوي ومنفلوط والفشن وطهطا وجرجا وقنا ميدانًا للمعامل والمصانع والورش على اختلافها. وتبدو لكم بحليها وحللها زاهرة عامرة تسعد مصر والمصريين، وتكفي البلاد حاجاتها وتوفر لأهلها ثروتهم، ولا تعطي الأجنبي من خيراتها إلا بمقدار.

أرجعوا البصر كرة أخرى إلى مصر قبل عهد (محمد علي)، وقارنوا بين حالها في ذلك الحين وما صار إليه في عهده؛ تجدوا أرضًا بلقعًا تحولت إلى رياض وجنان وفضاء واسع صار فيه الألوف والملايين يحرثون الأرض ويزرعون ويستثمرون وشقاء تولى ونعيمًا أقام، وفوضى زالت وأمنًا استتب، وزراعات جديدة دخلت إلى البلاد فأحيتها وأنمت ثروتها وملأت نواحيها رغدًا وسعدًا.

ومن ذا الذي يستطيع أن يقف أمام هذه الأمة موقف المحقق المدقق وينكر على (محمد علي) فضله في إحياء أراضي القطر، ونقل زراعة القطن إليها وأياديه البيضاء على كل من يعيش من الزراعة ويعطف عليها؟ من ذا الذي ينكر إصلاحاته العديدة في الري، والقناطر البديعة التي أقامها والمصارف التي أنشأها والمشروعات التي لا تزال قاعدة لكل إصلاح؟ من ذا الذي يحارب الحقيقة والتاريخ ليتجاهل أن مصر تجني اليوم من ثمرات أعمال (محمد علي) عشرات الملايين من الجنيهات، وأنه صاحب الفضل الأكبر على كل فرد من أهلها والنزلاء المستوطنين بها.

محال أن تخرج مصر واحدًا من أبنائها يأتي على الحقيقة والوطنية إعلان فضل (محمد علي) والاعتراف بأعماله الجسان وأفعاله العظام، ومحال أن ينسى مصري تربى في مهد العلم والأدب إحسان هذا الأب الكبير والمحسن البار العظيم، وهو الذي

تعلم القراءة والكتابة بعد الأربعين ليكون خير قدوة للمصريين، وهو الذي فتح المدارس والمكاتب وملأ الديار نورًا وعرفانًا، وتولى تربية صغار الفلاحين؛ فبهر العالم بفرط ذكائهم وعظيم استعدادهم للتعلم والانتقال من شأنٍ إلى شأنٍ.

دعوا الصانع والمزارع، واسألوا كل متعلم في مصر: ماذا كان يكون حالك لو لم يعلم (محمد علي) أباك من قبل؟ أما كنت تكون في ظلمات الجهالة بعيدًا عن مشارق النور والحياة والوجود؟

أجل، إن كل مصري شب وتعلم وتهذب وعرف أن حياة الفكر والجد هي الحياة الصحيحة، وأدرك أن أسمى الهبات هبة العقل، وأن أجمل حلية لهذه الهبة الغالية تثقيفها بالعلوم والمعارف، مدين لمؤسس العائلة الخديوية بما هو فيه من نعمة ونعيم، وإنه لخليق بكل مصري نال العلم بفضل (محمد علي) أن ينتسب إليه بالروح والوجدان انتساب بنيه وذويه إليه ويسلك السبيل الذي وجه الهمم والعزائم إليه ليبلغ بالوطن والبلاد الشأن الأولى والمقام المحمود.

أيها السادة:

مهما بحث الباحث في حياة (محمد علي) ومهما حكم على عصره، فإنه لا يستطيع إلا الاعتراف بأنه أحاط مصر بسور من القوة والرهبة، ورمى إلى إنشاء حكومة منتظمة فيها تدير أمورها على قواعد راسخة وأصول ثابتة، وجمع شملها فبعد أن كانت مفرقة موزعة على المماليك يتصرف كل واحد منهم في الأموال والأرواح والأعراض كما يشاء وتشاء الأهواء صارت وطنًا واحدًا لأمة واحدة يجمعها لواء واحد تحت سيادة أمير عظيم لا يذكر اسمه إلا مقرونًا بالاحترام والإعظام.

ومهما اختلف الناس في اعتبار نتائج أعمال (محمد علي) فلا مراء في أنه وهب مصر عقلًا مديرًا وقلبًا شاعرًا وساعدًا شديدًا ومجدًا تليدًا، وأنه وهب المصريين وطنًا وأمة وحكومة ولسانًا، وطبع على قلوبهم وأفئدتهم محبة الوطن والشهامة والإقدام، وحبب إليهم الفتح والنصر ورفع الراية المصرية على كل صقع ومكان.

انظروا معاشر المصريين إلى سياسته في حكومته تجدوها قائمة على مبادئ ثلاثة لا تدوم دولة بغيرها ولا تحيا مملكة بغير إحيائها: وهي أولًا حماية الوطن من اعتداء الأجنبي وسلطته، ثانيًا ترقية الجيش المصري إلى أسمى الوظائف وترشيحه إلى استلام مقاليد الأمور حتى لا تحتاج البلاد لأجنبي يزاحم بنيها، وتدريب المصريين على كل عمل وصناعة حتى تحفظ الثروة الأهلية في البلاد، ويزداد الوطن عزًّا ورغدًا ونعيمًا، ثالثًا الامتناع عن الدين واجتنابه كل الاجتناب.

بأي قلب، أم بأي ضمير، أم بأي لسان أحدثكم عن حماية الوطن وصيانته ومنع اعتداء الأجنبي على ربوعه وصده عن منازله، ومصر اليوم تمثل الاستسلام للإنجليزي والرضوخ لسلطته، والامتثال لإرادته، وهي هي التي ردته عن الديار تحت إمارة (محمد علي) وفي ظل رايته، وقالت له: مكانك أيها المهاجم! مكانك أيها الداخل! مكانك أيها المزاحم، إني أمة حية تأبى الضيم والهوان ولا تدرك للحياة معنى بغير الحرية والاستقلال!

بأي قلب، أم بأي ضمير، أم بأي لسان أحدثكم اليوم معاشر المصريين عن حماية آبائنا للوطن ودفاعهم عنه ونضالهم عن حوزته أيام (محمد علي الكبير)، وقد حاولت إنجلترا أن تقضي على هذا الملك الجديد وهذه الدولة الناشئة وتزيل من سماء المجد والإقبال هذه الشمس المشرقة، فأراها يومئذ بنو مصر أي أمة هم، وأراها (محمد علي) أي أمير هو! فتركت الثغور والبلاد، آسفة على فشلها، معجبة بهذا المجد الباهر والعزم القاهر والوطنية الحقة والهمة الحديدية.

اعجبوا أيها المصريون لهذا الحادث الخطير ولتصرفات الليالي كيف أفرخت مصر وأبكتها في يومٍ واحد؛ أفرحتها في يوم (١٤ ستبمبر من عام ١٨٠٧م) حينما جلت الجنود الإنجليزية عن ثغر الإسكندرية بعد احتلال دام ستة أشهر، وأبكتها في يوم (١٤ سبتمبر من عام ١٨٨٢م) حينما دخلت الجنود الإنجليزية عاصمة الديار المصرية.

كوفئت مصر في يوم بأكبر مجد وأشرف فخار، وعوقبت في مثل ذلك اليوم بعد خمسة وسبعين عامًا باحتلال جر عليها العار والشنار، كوفئت لأنها صانت الوطن والديار، وعوقبت لأنها سلمت البلاد وانشقت على نفسها ونسيت تاريخها وتناست مطالع أعدائها وامتلأت نفوس دعاة الثورة فيها بالأنانية والأغراض الذاتية والآمال الشخصية، فذهب الوطن فريسة، وقُدِّمت الأمة على هيكل الدنايا ضحية، وتولى المجد القديم والعز التليد وأقام الذل والهوان.

هذه عبرة العبر في التاريخ وموعظة المواعظ، فالتقطوها معاشر المصريين الراغبين في خير البلاد ورفعتها، واذكروها في كل وقت وآن، اذكروها وتأملوا في تاريخ ذلك الرجل العظيم، تأملوا كيف ينتدب علماء الغرب وحكماءه وسادات أدبائه وفضلائه ليعلموا المصريين العلوم والصناعات، حتى إذا صاروا من رجالها وتحلوا بجمالها سلمهم مقاليد الأعمال، وكافأ المعلمين الغربيين على عملهم وزودهم بالشكر والإحسان.

رأى محمد علي أن الدَّين (بفتح الدال) أساس الاستعباد، وأن أسمى المبادئ الجديرة بالاتباع مبدأ القائلين «أَدِن تستعبد واستدن تُستَعبد»، فلم يستدن لأنه خطب السيادة ولم يخطب الاستعباد، وطلب القوة ولم يطلب الضعف والمذلة.

حقًّا إنها لآية الآيات ومعجزة المعجزات، كيف يشيد (محمد علي) المدارس والمعامل ويقيم الأبنية للجنود والعساكر، وينظم الري والفلاحة، ويشكل جيشًا بلغ عدد رجاله مائتين وثمانين ألف جندي (٢٨٠٠٠٠)، وأسطولًا كان البحارة فيه لا يقل عددهم عن ستة عشر ألف بحري (١٦٠٠٠) وكانت إيرادات مصر إذ ذاك لا تتجاوز مليونين ونصف مليون من الجنيهات، ثم لا يستدين عزيز مصر ولا يعرف الدين ولا الدين يعرفه!

ائتوني بعظماء الرجال وكبراء الأمم وفحول السياسة، واعرضوا عليهم هذا العمل المدهش وهذه الآية الكبرى، وأنا كفيل بأنهم لا يصدقون به ولا يؤمنون بها،

هل في طاقة رجل مهما بلغ من العظمة وقوة الإرادة أن يقوم بهذه العظائم ولا يتعثر في ذيله بالديون الثقال؟ من هذا الرجل الذي تعدى حدود الطاقة البشرية حتى استطاع أن يخرج أمة من الجهالة والظلمات إلى العلم والنور، ويشيد فيها ملكًا قائمًا على جيش عديد وأسطول قوي رهيب ومعامل ومصانع ومدارس، ثم لا يستمد بمال الغير ولا يستعين على أعماله بغير قوة البلاد، وهي التي حمَّلها الزمان من قبل ما يدك الجبال ويفل الإرادة الماضية ويودي بعزائم الرجال؟

ما هذا المجد الفخيم الذي يحدثنا عنه التاريخ؟ أين ذلك المصري الذي كان إذا جاب المدائن والممالك تحولت عن غيره الأنظار والتفتت إليه الشعوب بعيون الإعجاب والاعتبار؟ أين ذلك الذي إذا فاخر القوم ببلادهم أعطى المقام الأول ونال الشرف الأعلى وأعد وطنه في مقدمة الأوطان ومصره في الصف الأول مصاف الأمصار والبلدان.

أين عصر نقل عنه الناقلون أن الدول غدرت بمصر وحرقت أسطولها في ثغر (ناورين) وأماتت من بحارتها البواسل ستة آلاف رجل، وتقدم ضابط فرنساوي بالخبر إلى رجل الحروب وبطل المواقع إبراهيم باشا، فهز الأمير رأسه وقال: «ما أنشئت السفن والبواخر إلا لتكون فريسة النار أو البحار، فلست بآسف عليه، وإن أبي لقادر أن يجدد مثلها في عام أو بعض عام»؟

أين ذلك العهد البعيد ليتعزى به المصري الحزين الأسيف؟ أين هو ليبعث في القلوب المستميتة شيئًا من الحياة والقوة، ويدل على حقيقة موقفه وقيمته ومكانته؟ أين هو ليخطب فيكم بلسان الحال فيبلغ من نفوسكم ما لا يبلغه لسان المقال؟

أين كانت اليابان يومئذ؟ أين كانت هذه المملكة الناشئة والدولة الفاخرة؟ كانت -وكأنها لم تكن- في دياجي الظلمات وغياهب الجهل، تعد إذا ذكرت في عداد الأموات.

فقف أيها المصري فوق أطلال التاريخ، وارقب الحوادث، وانظر إلى أي حال صارت اليابان، وإلى أي حال صرنا، وماذا كنا نبلغ من الشأن والشأو لو سلكنا ذلك السبيل الذي وجهنا إليه محمد علي الكبير.

ليس الموقف موقف حزن يميت النفوس؛ بل موقف عظة واعتبار، وإن العبرة الكبرى في حياة (محمد علي) والدرس المفيد الذي يلقيه التاريخ على أبناء هذه الديار، أنهم لم يفقدوا العصبية والوحدة الملية، ولم يقفوا في طريق التقدم على حين استرسال غيرهم في السير إلى الأمام؛ إلا لأنهم فقدوا الثقة بأنفسهم ونسوا ما قاموا به من جلائل الأعمال.

ثقة الأمة بنفسها هي الأساس الذي يبنى عليه مجدها ويشاد عزها وسؤددها، ترى الأمة إذا اعتقدت الخير والقدرة في مجموعها وأفرادها تغلبت على الحادثات والأيام وقهرت ألد أعدائها واجتازت المصاعب غير هيابة ولا وجلة.

هذه أمم الغرب يترك الفرد من أبنائها بلاده، ويطوف الأرض من جانب إلى جانب، وهو في كل مكان ينزل به قوى الجنان شاعر بأنه الممثل لوطنه الدال عليه، معتقد أنه رايته التي إذا أهينت أهين، وإذا مست بسوء قامت لأجلها بلاد وقعدت، وما هذا الاعتقاد وذلك الشعور إلا لأن الأمة وثقت ببعضها وارتبط كل فرد ببقية أفرادها، فصارت كتلة واحدة لا يعتدي عليها زمان ولا يجرؤ على المساس بها إنسان.

أمَّا الأمة التي ظنت السوء بنفسها وتركت هذا الظن الفاسد ميراثًا لأبنائها وأحفادها، فقل عليها السلام وادعها أمة الموت والفناء.

لا يؤلم المصري المحب لبلاده مثل ما يسمعه ذات اليمين وذات الشمال من سوء مظنة المصريين بأنفسهم، وتناقل هذه الأقوال المميتة للخواطر القاتلة لكل حركة واردة من الكبير إلى الصغير وشيوعها حتى بين الأطفال الناشئين.

ما هذا السم القتال الذي تناولته الأمة عن طيب خاطر؟ ما هذا البلاء المدمر للبلاد الذي حل بها وتساقط على رءوس أهلها وهم إليه ناظرون؟ كيف تنسى هذه الأمة العزيزة أنها هي التي فتحت وقهرت وضربت وانتصرت وبهرت العالمين بقدرتها وشدة بأسها؟

لا ريب أن أصل هذا البلاء وجرثومة ذلك الداء إهمال أمر التربية الوطنية، ومحو آثار التاريخ المهذب للعقول والأرواح من المدارس والمكاتب، التاريخ هو المدرسة الجامعة لكل طبقات الأمة والمعلم الذي يتأدب بأدبه الأمير الخطير والوزير الشهير والعالم والطالب، والفقير الصغير، مَن ذا الذي يقرأ تاريخ محمد علي ويرى على صفحاته آيات الشهامة والبسالة التي حلى بها المصريون أيامهم وأسماءهم وأوطانهم، ولا يشعر بأنه ينتسب لأمة عالية إن أهانها الزمان أيامًا، فلسوف يرغم على احترامها وإكرامها ورد سؤددها إليها، من ذا الذي يسمع بتلك السفن الجارية والجيوش الجرارة والمعامل العديدة والمدارس الجمة والحياة العامة والاستقلال المصان، ولا يرى نفسه من سلالة قوم فاتحين متمدنين جديرين بأن يخلد مجدهم وتدوم أيامهم.

يقول الجاهلون: إن الزمان لم يترك من آثار محمد علي شيئًا مذكورًا، ولا يدرون أنه ترك شيئًا كبيرًا، ترك بذور المجد والمدنية، ترك المواد الحيوية لإحياء الأمم وإعلاء قدرها، ترك العلوم والأنوار.

إن لم يكن إلا هذا الأثر -أثر العلوم والمعارف- فحسب العصر الماضي شرفًا وفخارًا؛ لأنه ألقى إلينا السلاح الذي ما حارب الجهل والرذيلة حتى تغلب عليهما، ألقى إلينا مفتاح الرقي والتقدم وآلة المجد والغلبة وسلم السؤدد والمعالي ونبراس الكمال، ألقى إلينا بعدا الحياة فإن استخدمناها كما استخدمها سدنا كما ساد وسادت الديار، وإن أسأنا استعمالها أسأنا إلى أنفسنا وقضينا على الحاضر والمستقبل شر قضاء.

قد ينسى بعض المصريين أن (محمد علي) تولى أمر البلاد باختيار أهلها وانتخابهم، وأن علماء مصر وأعيانها رفعوه إلى الإمارة بأيديهم في مثل هذا اليوم من مائة سنة

هجرية مضت، وأن هذه رابطة أكيدة بين الأمة والعائلة الحاكمة لا يصح لأحد أن ينساها، ولا يليق بمصري أن يتناساها، هذا إخاء بين الشعب والأمير لا تنفصم له عرى، ولا ينحل له رباط.

إذا كانت مصر لم تذكر في بعض حوادثها الماضية وأيامها السالفة هذه الرابطة وهذا الإخاء مما أودى بها وساقها إلى مهاوي الدمار والشقاء، فخليق بها أن تذكر الآن وفي كل آن هذا العهد المتين، وتزداد بعرش الخديوية ارتباطًا وتعلقًا كلما مضت الأيام وتوالت الأعوام.

وكيف لا يذكر المصريون ذلك العهد ويبذلون الأرواح والأموال في سبيل تأييده وصيانته، وهو هو الحامي لبقايا المجد والاستقلال.

في أي موقف يرى المصري بلاده الآن؟ في موقف البلاد المستعبدة التي تنتظر من وقت إلى آخر تحقيق وعود دولة متمدنة عظمة ولا تزف لها الأيام إلا مطلًا في الوعد وبلاء على بلاء.

دخلت إنجلترا هذه الديار مدعية إصلاحها وتأييد عرش الخديوية المصرية فيها، ونشر ألوية الأمن والعدل في نواحيها وإعداد المصريين إلى إدارة شئون بلادهم بأنفسهم، ثم الجلاء عنها وتركها لأهلها، فماذا عملت وأي طريق سلكت وإلى أي نتيجة وصلت؟

وكان أول عمل للدولة الإنجليزية أنها قدمت الوعود والعهود للعالم كله بالجلاء عن مصر ولو بعد حين، وتركها لأهلها المصريين، فاعتقد صدق أقوالها الكثيرون من الشرقيين وقالوا: «محال أن يكذب القوم المتمدنون!» لأنهم لا يكونوا ليعلموا أن السياسة الغربية قائمة على مخالفة الوعود والنكث العهود، وأن المدنية البريطانية تطلب سيادة الأمم من مثل هذا الطريق حتى صرح الساسة الإنجليز أنهم لم يقدموا هذه الوعود وتلك العهود إلا للسذج والبسطاء، وأنهم ينزهون العقلاء والحكماء عن التصديق بوعد في السياسة أو بعهد في تدبير امتلاك الأمم واغتيال حقوقها، فعلم

المصري يومئذ ما لم يكن يعلم؛ علم أن إنكلترا احتلت بلاده لتقيده بقيود الذل والاستعباد، لا لتضع على رأسه تاج الحرية والاستقلال، علم أن وطنه صار مرمى السهام البريطانية، وأن حياته ومجده على خطر، وسمع صوت البلاد يناديه: الحذار! الحذار!

ولكن صوت الإنجليزي ارتفع ليدله على وسائل الرضوخ للمذلة والاستماتة، ارتفع ذلك الصوت؛ صوت العاملين على ابتلاع مصر مناديًا بأن المصريين لا يزالون أمة طفلة محتاجة لمرب حكيم ومرشد عليم، فهل هم المربي وذلك المرشد؟

دلَّ سلوك إنجلترا في مصر ويدل على أنها لا تريد لعرش الخديوية قوة ولا للبلاد خيرًا، ولا للمصريين تقدمًا وارتقاء، ونحن لا نقول هذا القول جزافًا؛ بل نقدم عليه ألف برهان وبرهان، وما دام الإنجليز يفاخرون ويفتخرون بحرية القول والكتابة، فإننا نناقشهم الحساب ونسألهم أمام الملأ كله عن نتائج سياستهم بعد عشرين عامًا، نسألهم أين الأمن الذي ادعوا توطيد أركانه؟ هل ازدياد الجرائم والجنح والمخالفات وتعدد السرقات وكثرة اللصوص واعتراف النائب العمومي بذلك كله وتفنن الأشرار في إشعال النيران وحرق القرى والبلدان مما تفاخر به إنجلترا وتعده آية يحق لها أن تمن بها على مصر والمصريين؟ هل انتقال الوظائف من أيدى المصريين شيئًا فشيئًا وخروج السلطة من قبضتهم وإماتة كل نفوذ لهم مما يرشحهم لاستلام مقاليد الأمور والسير بالبلاد إلى الأمام؟ هل محو كل روح وطنية في المعارف وقلب مدارس الحكومة حتى صار عاليها سافلها، يؤهل المصريين للتقدم في ميادين الحضارة والعمران؟ هل إنشاء المحكمة المخصوصة، وتعالي المحتلين على المصريين واعتداؤهم على القانون والعدالة والنظام العام مما يؤيد المساواة في البلاد ويزيد القطر ارتقاء وانتظامًا، هل رفع العلم البريطاني على عاصمة السودان وإخراج العدد العديد من الضباط المصريين من الجيش بعد أن أبلوا ضد الدراويش أحسن بلاء، وقاموا بأعمال تخلد لهم المجد والفخر مما يؤيد عرش الخديوية المصرية ويستوجب حمد

المصريين؟ هل بقاء الحكومة بغير سلطة مراقبة عليها من الأمة كما يشاء المحتلون مما يجعل مصر في بحبوحة الراحة والأمن ويوطد أركان الدستور فيها؟

ذكرت الدستور وطالما ذكره الذاكرون من أنصار الاحتلال ورجاله، فأين هو الدستور؟ أين ذلك الدستور الذي يلجم الحكومة بلجام من حديد ويهب الأمة حرية الرأي والفكر وحق المراقبة على أعمال الحكام وسن القوانين والشرائع ومناقشة الوزارة عن الصغائر والكبائر؟ أين ذلك الدستور ونحن لا نرى إلا مستشارين من الإنجليز يحركون الحكومة يمينًا ويسارًا، ويتلقون الأوامر من رجل واحد ولا يحاسبون أمام أحد من أبناء هذه الأمة؟ هل معنى الدستور سقوط السلطة المصرية وقيام السلطة البريطانية مقامها؟

كلا ثم كلا! إنما الدستور هو منح الأمة حق الإشراف على كافة الأعمال ومراقبة ما تجريه الحكومة لخيرها أو لضرها، وسؤال الوزارة عن كل صغيرة وكبيرة، وتغييرها بغيرها إذا أساءت استعمال السلطة أو تهاونت في خدمة البلاد بالدستور هو ألا يستطيع أحد، مهما كل عظيمًا، وطنيًّا أو أجنبيًّا، أن يمس القوانين والنظامات بشيءٍ، فهل يوجد رجل واحد في هذه الأمة يجرؤ على القول بأننا اليوم متمتعون بنعمة الدستور، وأن المحتلين لو شاءوا تغيير أي نظام موجود أو خرق سياج أي قانون لا يستطيعون؟

لعمري إن ما يسميه المحتلون وأنصارهم بالدستور لهو الفوضى في لباس النظام، والاختلال في قالب الاحتلال، وإلا فأين الضمانة التي تطمئن لها القلوب والخواطر؟ أين ذلك المجلس الذي وعدت به بريطانيا على لسان اللورد دفرين؟ أين هو لتعتقد الأمة المصرية أن الدولة البريطانية لم تحتل بلادها إلا لتسعد حالها وتعلي شأنها وتوقف المصري على مكانته وتعرفه أنه إنسان له حقوق الإنسان؟

يظهر بعض الإنجليز اندهاشًا قيامنا ضدهم، ولست أدري كيف أكيف هذا الاندهاش؟ كيف أكيف وهو أبناء أمة متمدنة تعرف معنى الوطن والوطنية وتدرك

أن الحرية هي أسمى نعيم وأن صيانة البلاد من اعتداء الأجنبي أقدس فرض على أهلها، كيف أكيفه وقد قال اللورد دفرين: «إنه يحق للمصريين أن يبغضونا من عميق قلوبهم إذا أقمنا طويلًا ببلادهم مهما أسعدناهم وأسبغنا عليهم من النعم؛ لأن الاستقلال لا ثمن له!».

نحن نرى من العار والخيانة عدم المطالبة بالجلاء، نحن نرى من الجبن والاستماتة عدم المطالبة بالدستور؛ أي بالنظام الذي تتمتع به الأمم المتمدنة، ونحن نرى من موت الشعور وفقدان الوجدان السكوت عن حقوقنا الشرعية التي يعترف بها كل إنسان، وتعتقد أن الإنجليز أنفسهم يحتقرون كل مصري لا يرى هذا الرأي ولا يجاهر به؛ لأنهم إن أحبوا أن يخون الرجل وطنه لأجلهم، لا يحبون الخائنين، وإن كرهوا القائمين في وجوههم المدافعين عن بلادهم لا يستطيعون إلا تعظيم الوطنية ورجالها أنى كانت وأنى كانوا!

أيها السادة:

أصبحنا بعد مائة عام قضينا جانبًا منها في الجد والعمل وغرس بذور المدنية وفتح أبواب مصر والسودان للعالم المتمدن في آخر مصاف الأمم، تمتاز عنا الصرب والبلغار وشعوب صغيرة لم تكن في الحسبان، بالحرية والاستقلال والاحترام العام، فمن البلية والشقاء والموت الأدبي أن نقف متفرجين على حركة العالم ونترك الأمم الأخرى ترتقي منصة السمو والجلال!

هذه حياة (محمد علي) لنا أن نستنبط منها ما يفيد البلاد في الحال والاستقبال، لنا أن نضربها مثلًا للأبناء والناشئين ليعلموا أن مصر كانت من القوة والبأس بمكان، وإنها تكون كذلك لو طرقوا أبواب الاتحاد والوئام وسلكوا مسالك العزم والإقدام.

لا تقوم مدنية مصر في مستقبل الأيام، ولا يدوم لها شأن إلا إذا شيدت على الأمة وبالأمة وعرف الفلاح والصانع والتاجر والمعلم والمتعلم، وكل فرد من أفرادها أن للإنسان حقوقًا مقدسة لا يصح المساس بها، وأنه لم يخلق ليكون آلة بل ليعيش عيشة

الأحياء، وأن حب الوطن هو أسمى شعور تتحلى به نفس بشرية، وأن أمة ضاع استقلالها لا مقام لها ولا شان لأبنائها.

الوطنية أيها السادة، هي العماد لكل مملكة والأساس المتين لكل دولة، الوطنية هي الروح العاملة في كل بلاد العالم المتمدن، الوطنية هي أم المعجزات وأصل كل تقدم وارتقاء، الوطنية هي التي تنقل الشعب الجبلي إلى الحضارة والعمران، والاقتدار وسمو القدر في قليل من الأعوام، الوطنية هي الدم في عروق الأمم والحياة لكل ذي حياة.

الوطنية هي الغذاء الذي يحتاج إليه جسم مصر وروحها قبل كل غذاء، فقدموها للأبناء في غدواتهم وروحاتهم وحركاتهم وسكناتهم، واطبعوها على قلوبهم.

أيها السادة:

إنَّ الرجل العظيم الذي غير أحوال مصر وكساها حُلة من المجد والفخار وفق عمله بين مبادئ المدنية العصرية ومبادئ الدين الإسلامي الكريم؛ لأنه رأى أن في الإسلام كافة المواد الحيوية لأرقى مدنية يشتهيها بنو الإنسان، وأنه الدين الذي يؤهل أهله وذويه إلى أسعد حالات الحياة وأتم نعيمها، فإذا افتدينا به واعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها واعتبرنا بعبر التاريخ، وتركنا النزاع الذي أضر بمصر والإسلام، واجتنبنا كل افتراق وشقاق بلغا أقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع.

وإننا لا نبغي في هذا الطريق الذي يدعونا لسلوكه كل محب لمصر معاداة أحد من النزلاء، أو الخروج عن خلة إكرام الغريب التي اشتهرنا بها؛ بل إننا نشكر كل أجنبي يساعدنا على خدمة الأوطان كما شكر آباؤنا من قبل، وكما شكر تاريخ مصر سليمان

باشا، وفارين، وسجرا، وكلوت بك، وسيريزي، وبسون بك، وجومار، وجومل[١]، إلا أننا نطلب الاحترام المتبادل والاشتراك في المنفعة اشتراك إخاء؛ لا اشتراك شحناء وبغضاء، وإنه يسرني أن أعلن شكر الأمة المصرية كلها لأولئك الكرماء من النزلاء الذين شاركوها في مصابها بالحرائق الأخيرة والنوازل المؤلمة، فجادوا بالأموال عن كرم وسخاء، وخففوا بها وبصادق العواطف الآلام عن المنكوبين.

يحلو لي أيها السادة أن أختم خطابي بكلمة قالها نابليون يوم دخل مصر؛ قال ذلك الرجل الكبير: «لا تكون الأسماء العظيمة إلا في الشرق»، فالشرق كان ولا يزال ميدانًا واسعًا للمجهودات الكبيرة الهمم العالية، لا يزال الشرق مهدًا لعظماء الرجال وكبراء الشعوب، وإذا كان قد حُرمهم حينًا من الدهر طويلًا، فما علة ذلك الحرمات إلا اليأس والقنوط.

فانزعوا اليأس من قلوبكم معاشر المصريين، وطهروها من القنوط وسوء الظن بالله وقدرته، وابنوا مجدكم المقبل على التربية الوطنية السليمة الصحيحة، وضموا صفوفكم وأجمعوا أمركم ليخرج من بينكم رجال عظماء يبدلون ليل الأوطان بالنهار ويردون ما فقدت من استقلال ومجد وفخار!

٤- خطبته بالإسكندرية
يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧م

سادتي وأبناء وطني الأعزاء:

بأي لسان أشكركم على مظاهرتكم الودية لي وانعطافكم العالي عليَّ، وليس لي مطمع في هذه الحياة إلا أن أراكم متفقين معي شعورًا ورأيًا وقد حققتموه فأبلغتموني أقصى ما أتمنى.

---

(١) هم من المستشارين الذين استعان بهم محمد علي في نهضة مصر. انظر تفصيل ذلك في كتابنا «عصر محمد علي».

المبدأ وخادمه

ألا إني أعلم أنكم أردتم بمظاهرتكم هذه أن تجيبوا أولئك الأعداء الظاهرين والمستترين، وتسمعوهم أصواتكم جهيرة، وتقولوا للملأ كله: إنكم أعوان الشعور الوطني وأنصار النهضة المصرية، وأن خدام هذه البلاد يجدون منكم على الدوام كل مؤازرة ورعاية.

إني أعلم أنكم تعتقدون كما أعتقد أن الذين يهبون قواهم وأعمارهم لبلادهم لا يحسبون لأشخاصهم وجودًا مستقلًّا عن المبدأ الذي يعملون لنصرته؛ بل يندمجون في المبدأ نفسه، فكل تحية إليهم فهي تحية إليه.

ولذلك أستقبل دلائل الحب والميل التي تظهرونها نحوي على أنها إكرام لأشرف مبدأ قام ويقوم في خدمته الإنسان، ألا وهو مبدأ إحياء الوطن ورد مجده واستقلاله إليه.

حياة مصر بعد الاتفاق عليها

أيها السادة! إن مصر خطت في الثلاث السنوات الأخيرة خطوات واسعات في سبيل النهضة الأهلية، وأسمعت الأمم والدول صوتًا ما تعودن سماعه من قبل.

ظنَّ الساسة الإنجليز أنهم إذا اتفقوا مع فرنسا على مسألة مصر طويت أوراق هذه القضية الخطيرة وخفت كل صوت ومات كل أمل وحل اليأس محل الرجاء، وصار الشعب المصري أثرًا كتلك الآثار القديمة التي يأتي السائحون لرؤيتها في كل عام.

ولكنهم أخطأوا خطأ كبيرًا، نعم أخطأ أولئك الساسة الذين يظنهم العالم كله أمهر الناس في تدبير الشئون وإعداد الحوادث ومعرفة المستقبل.

أخطأوا لأن العزلة التي صرنا إليها بعثت فينا روحًا جديدًا أرشدنا إلى الحقيقة التي لا قوام لشعب بدونها ولا حياة لأمة بغيرها، ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها، وهي: أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها، وأن الشعب كالفرد لا يكون آمنًا على نفسه إلا إذا كان قويًّا بنفسه مستجمعًا لكل عدد الدفاع وآلات الذب عن الشرف والمال والحياة.

نعم فقهنا أن الشعوب التي لا ترجو الرقي إلا بمعونة جيرانها وأصدقائها، ولا تحفظ استقلالها إلا بالاعتماد على حلفائها، هي شعوب في خطر وحياتها مهددة في كل وقت.

دهش الذين كانوا لا يرون فينا إلا أمواتًا تتحرك كما بُهت أعداء الوطنية المصرية من هذه الروح الجديدة التي دبت في الأمة وقالوا: عجبًا أيحيا هذا الشعب؟ أتنهض مصر بنفسها؟ أتعمل للاستقلال وحدها؟ أتقدر على تحقيق مطالبها بمحض إرادتها؟ أتقاتل اليأس والقنوط وتتغلب على الحوادث والكوارث؟

أجل وألف مرة أجل! إن مصر بالغة آمالها ومحققة آمانيها بإرادها وهمتها، إنكم تقولون يا أعداء مصر: إننا عشنا القرون الطوال أذلاء تعساء يحكمنا الغير وتتبدل السلطة الأجنبية، ولا يتبدل شقاؤنا، وتجعلون هذا القول حجة علينا ودليلًا على أننا خُلقنا للذل والهوان، وأن السيادة الأهلية لن تسكن وادي النيل أبد الزمان! كذبتم وحق مصر يا أعداء مصر! كذبتم على الله والناس، فما بقاء هذه الأمة بعد اشتداد الإحن والمصائب وتعدد الإهانات والنوائب ووجود الروح الوطنية فيها بعد كل ما كان إلا دليل قاطع على أنه قد حان الوقت لأن تسترد حقوقها المسلوبة، وتسترجع مكانتها في الوجود، تقولون يا أعداء مصر: إنها لبثت زمنًا طويلًا مكبلة بقيود الذل والاستعباد، وتتساءلون: كيف تعيش بعد ذلك في سؤدد واستقلال؟ وفاتكم أن ذلك الماضي المظلم يزيدنا تمسكًا بحقنا في مستقبل مضيء باهر، نسيتم أن الشقاء المديد

أدعى إلى هناء مثله مديد، وأن شعبًا قضى القرون وقواه لا تنصرف إلى خير الوطن يكون أقوى شعوب الأرض يوم يوجهها إلى هذه الغاية السامية.

تقولون يا أعداء مصر: إننا لو أفلحنا لما نلنا هذا الاستقلال إلا بعد حين طويل، فنجيبكم أننا لو سلمنا بقولكم لما جاز لنا أن نتأخر لحظة واحدة عن العمل؛ لأننا لا نعمل لأنفسنا؛ بل نعمل لوطننا، وهو باقٍ ونحن زائلون، وما قيمة السنين والأيام في حياة مصر وهي التي شهدت مولد الأمم كلها، وابتكرت المدنية والحضارة للنوع الإنساني كله!

إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصري ونبتهج به، وندعو له كأنه حقيقة ثابتة، وسيكون كذلك لا محالة!

فمهما تعددت الليالي وتعاقبت الأيام، وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب، فإننا لا نمل ولا نقول أبدًا: لقد طال الانتظار!

إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم في ماضي الأيام وحاضرها، وأعلى مطلب ترمي إليه في مستقبلها، فلا الدسائس تخيفنا، ولا التهديدات توقفنا في طريقنا، ولا الشتائم تؤثر فينا، ولا الخيانات تزعجنا، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر بجانبها كل غاية.

نعم إنا لو تخطفنا الموت من هذه الديار واحدًا بعد واحد، لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا: «كونوا أسعد حظًّا منا، وليبارك الله فيكم ويجعل الفوز على أيديكم ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطني والحرية الأهلية والاستقلال المقدس!.

بلادي بلادي! لك حبي وفؤادي، لك حياتي ووجودي، لك دمي ونفسي، لك عقلي ولساني، لك لبي وجناني، فأنت أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر!».

حب مصر وإحياؤها

يقول الجهلاء والفقراء في الإدراك: إني متهور في حبها! وهل يستطيع مصري أن يتهور في حب مصر؟! إنه مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التي يدعو إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة واللائقة بها.

ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوها واقرأوا صحف ماضيها، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض: هل خلق الله وطنًا أعلى مقامًا وأسمى شأنًا وأجمل طبيعة وأجل آثارًا وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز؟

اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد: إن مصر جنة الدنيا، وأن شعبًا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح في حقها وسلم أزمتها للأجنبي.

إني لو لم أولد مصريًّا لوددت أن أكون مصريًّا!

قد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصري مما لا يليق بإنسان، ولكن أي شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التي سبقت الأمم كافة في العلم والمدنية والأدب؟ أي رفعة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذًا لشعوب البشرية ومربي العالم كله؟ أي سؤدد ترمي النفوس الأبية إليه أعلى من إخراج الوطن المصري من الظلمات إلى النور وإحلاله المحل الأول بين الأوطان الأخرى التي كانت في الدجنة الحالكة يوم كانت بلادنا مشرقًا للعرفان؟

ليت شعري، أي لذة وسعادة ومكافأة يطلبها الوطني المصري أكبر من اشتراكه في هذا العمل الخطير الذي هو أجل عمل يراه العالم في القرن العشرين. إن المكسب الأدبي للوطن المصري من هذه الخدمة يربو على أتعابه ومجهوداته بكثير.

متطرفون!

أيها السادة!

يروق لبعض الجهلاء والمسخرين لخدمة الإنجليز أن يلقبونا «بالمتطرفين» ويقسموا الأمة فرقًا وأقسامًا، وما دروا أنه لا يصح أن يوجد في البلاد الفاقدة استقلالها المتحكم فيها الأجنبي إلا حزب واحد هو حزب الوطن، حزب الحرية حزب الاستقلال، وقد جهلوا أو تجاهلوا أنه ليس للبلاد التي يحتلها الأجنبي إلا سياسة واحدة: وهي سياسة المطالبة بالاستقلال، وإن كل قول أو عمل يؤدي إلى إضعاف الروح الوطنية وهدم جزء أو كل من ثقة الأمة بنفسها وبمستقبلها هو أكبر أذى يلحق بالبلاد، نسوا أن قانون الحاكم في معاملته للمحكومين خاضع لدرجة احترامه لهم، فإن رآهم أمواتًا في أزياء أحياء يقولون ما لا يعتقدون ويطلبون منه الإصلاح كما يطلب السائل الإحسان، لا كما يطلب صاحب الحق حقه، استبد فيهم وسخرهم للسلطة كما تسخر الأنعام!

نلقب بالمتطرفين! ولماذا؟ لأننا نطالب بحقوق مصر واستقلالها! لأننا نذكر إنجلترا بشرفها وعهودها ووعودها! لأننا نقول لها بصوت الحق والاعتقاد القوي: إن المستقبل يكفل ذلك، وأنه خير لها ألا تقاوم الحوادث فيما بعد، وألا تحاول إعدام أمة خلقها الله للحياة والعمل!

متطرفون! لأننا نعلن ثقتنا الكاملة بمستقبل بلادنا، ونقول لهذه الأمة في الصباح والمساء: اليوم عسر وغدًا يسر، واليوم أسر وغدًا فخر، اليوم احتلال وغدًا استقلال، اليوم عناء وشقاء وغدًا رخاء وهناء!

متطرفون لأننا نقول للأمة: اعملي وحافظي على السكينة، إياك والقلاقل فهي تخدم العدو وتضر بالوطن، إياك والانقسامات فإنها منشأ الخراب والدمار، إياك

وهوس العداوات الدينية فإنها آفة الآفات وجالبة المحن، إياك وسوء ظن الملأ المتمدن بك، فإن الشعوب في المدنية متضامنة ويا شقاء من سار ضدها!

متطرفون! لأننا نقول للأمة: خذي من العلم أوفر قسط وتسلحي بأسلحته، واملأي وادي النيل من نوره، وردي إلى الفقير حقه ونصيبه من هذا المنهل العذب.

متطرفون! لأننا نرد تهم العدو ونثبت للعالم كله أننا متمدنون وأنه ليس للتعصب بيننا وجود، وأن الإسلام عامل قوي لترقية الأمة ونشر أنوار المدنية فيها.

متطرفون! لأننا رفعنا أصواتنا محتجين على فظيعة الفظائع في دنشواي وعارضنا السياسة الإنجليزية في دعاويها ووقفنا في وجوه أعدائنا، والحق سلاحنا، والصراحة عدتنا، والإقدام مطيتنا.

متطرفون! لأننا نمثل مصر للأمم تتدفق حياة ونشخصها قوية ناهضة شريفة المقاصد، أبية لا ترضى المذلة ولا تعرف الكذب والخداع.

متطرفون! لأننا لا نطالب استعمار بلاد الغير ولا استعباد شعب من شعوب الأرض؛ بل نقنع بطلب الاستقلال لوطننا.

فإن كنا نعتبر متطرفين لأننا نعلن ذلك كله ولأن هذه خطتنا فأكرم بالتطرف، ويا فخارنا بأن نلقب بالمتطرفين!

ومن منكم لا يفخر بأنه متطرف، وأيكم لا يريد أن يكون سائر المصريين متطرفين؟

وهل يكون الاعتدال في هذه الحالة شيئًا آخر سوى الخوف والجبن والرياء واستعمال خطتين واتباع سياستين ومخاطبة الناس بلسانين؟ ومن ذا الذي يرضى لنفسه ولقومه بهذا الاعتدال، وما هو في الحقيقة إلا المذلة في أبشع مظاهرها والموت الشنيع الموجب لاحتقار الأمم جمعاء.

عجبًا! عجبًا! أنلقب نحن بالمتطرفين لأننا نطلب استقلال وطننا من أشرف السبل وبأكمل الوسائل، ولا نريد أن نتعداه بالاعتداء على أحد، على حين أن الإنجليز لم يكتفوا باستقلال وطنهم، بل استعبدوا الأمم وتوسعوا في الاستعمار وملكوا البحار، ولا يزال أكثرهم يقول: هل من مزيد؟

هل هم يلقبون بالعقلاء المدبرين لأنهم إنجليز، ونلقب نحن بالمتطرفين لأننا مصريون؟

هل الوطنية التي تروق وتعجب هناك، تؤذي وتؤلم هنا؟

هل مصر دون بريطانيا في الجمال حتى تحدد محبة المصريين لمصر ولا يعرف لحب الإنجليز لبريطانيا حد؟

كلا، وأيم الحق كلا، إن مصر جديرة بأن تُحَب بكل قوة، بكل عاطفة، بكل جارحة، بكل نفس، بكل حياة!

لا عجب إذا وقف من لا يعرف هذا الحب باهتًا أمام من يعرفونه، لا عجب إذا دهش الذي لا يتألم لمصاب وطنه ولا يشعر بأوجاع بلاده ممن يتألمون ويشعرون، لا عجب إذا كان الذين خلقوا وقلوبهم من صخر يعدون وطنية من ولدوا ولهم قلوب إنسانية جنونًا في جنون.

أعداء الوطنية

أيها السادة:

لا يجهل أحد منكم أن الحركة الوطنية المصرية أزعجت محبي الاستعمار من الإنجليز فحاربوها بدنشواي فخابوا، وبزيادة جيش الاحتلال فأخفقوا، وبتهمة التعصب الديني ففشلوا وأضحكوا العالم طرًّا، وها هم الآن يحاربونها بالخونة والمنافقين بعد أن عهدوا الأمر للدخلاء طويلًا فلم يبلغوا منا مأربًا، وإنهم لمخفقون

أيضًا في هذه السياسة الجديدة، إنهم لو جردوا جيوشًا من أعداء الحركة الوطنية المصرية، فإنها لا تزداد أمامهم إلا قوة وحمية وثباتًا وإقدامًا.

ليقلبوا نظام التعليم ما استطاعوا وليحاربوا الناشئين ما أرادوا، فإن رجال الغد لا يكونون إلا مصريين وطنيين متشربين بمحبة بلادهم، متطلعين لأن ينيلوها من المجد والسؤدد أسمى مما نالت الأمم الأخرى، لينفقوا الأموال ذات اليمين وذات الشمال لشراء الضمائر الخربة والنفوس المنحطة، فإنهم إن كسبوا فردًا واحدًا قام من الوطنيين الصادقين العشرات لهدم ما يبنون ودكِّ ما يقيمون.

إن أمة دبت فيها روح الوطنية وطمحت نفسها للاستقلال لا تموت أبدًا، وإن صواعق السياسة كلها لا تحول ضميرًا لاذ بالوطن عن وجهته!

أيها السادة:

إنَّ الوطنية واحدة لا تتعدد! وقد يضل الإنسان في أمور كثيرة ويخطئ في مسائل عدة؛ ولكن إذا كان هناك شعور لا يضل الرجل فيه ولا يخطئ أبدًا في تقديره وتكييفه وإظهاره بكل مظاهره، فهو الشعور الوطني، لا يحتاج المرء إلى علم ولا إلى فلسفة ولا إلى خبرة وتجارب ليقول إذا سأله السائل: «ما رأيك في مسألة احتلال الإنجليز لبلادك؟»: «إن خروجهم غاية آمالي، وإن العمل له أقدس الفروض المحتمة عليَّ».

إن أجهل الشعوب وأبعدها عن العلم والحضارة والمدنية تشعر بهذا الشعور؛ لأنه طبيعي، ولا يكون الإنسان إنسانًا إلا به.

لذلك كانت ضجة الأمم شديدة ضد من قالوا بإماتة هذا الشعور، ونادوا بأن الوطن خيال، وأن الراية قطعة من قماش، وأشاروا باعتصاب الجنود لو قامت الحرب ودعت الأمة أبناءها الأشداء للذب عنها.

انظروا إلى فرنسا وهي الدولة التي امتلأت صحف تاريخها بذكر الوطنية وآثارها الفخمة وورث الأبناء عن الآباء فيها حب الوطن والدفاع عنه حتى صار هذا الشعور

مقدسًا لا يقربه أحد بسوء، كيف تهتز الآن من شمالها إلى جنوبها، ويقول خدامها الأمناء بأعلى أصواتهم: «حذار حذار من «هرفي» وأنصاره فإنهم يريدون هدم بناء الوطنية الفرنسية؛ أي بناء المجد الحقيقي والحياة العالية، وإن عدوى أفكارهم أضر بفرنسا من كل جيش فاتح».

فإذا كان هذا مبلغ سخط الشعوب القوية الراقية على أعداء الوطنية، فكم يجب أن يكون سخطنا شديدًا عليهم، ونحن أحوج شعوب الأرض إلى هذا الشعور الذي لا ننال حقًّا إلا به ولا نبلغ مأربًا إلا بفضله.

إننا ما رأينا وما سمعنا ولا روى لنا التاريخ أن أمة سلبت حقوقها واختلس استقلالها وضربها الأجنبي ضربة الاستبداد والاستعباد يقوم من أبنائها من يمجد هذا الأجنبي ويقول له: «أنت السيد وأنت المنعم، فافعل ما شئت».

أسمعتم أن أرلنديًّا واحدًا قال هذا القول؛ أوصل إليكم أن بولونيًّا من أجهل البولونيين طأطأ رأسه أمام الحاكم الأجنبي؟ أم علمتم أن صغار البولونيين أدهشوا العالم كله بتمسكهم بوطنيتهم؟

إن من يظن أن الإنجليز يحبون الخونة يخطئ خطأ كبيرًا، نعم إنهم يستخدمونهم لأغراضهم؛ ولكنهم يحتقرونهم أشد الاحتقار؛ لأن شعبًا ينشأ الفتى فيه وهو يرى امتلاك الأرض ومن عليها حقًّا من حقوق أبناء جلدته لا يعتبر الخيانة إلا جناية الجنايات.

أين كانت تكون عظمة إنجلترا وسلطتها لو كان فيها من الخائنين من ترى مصر؟ هل كانت تسود الأمم وتملك رقاب الشعوب وتبلغ من الثروة والسؤدد هذا المبلغ؟

كلا وأيم الحق كلا، إنها كانت تكون ممزقة الوجود متفرقة الكلمة متباينة الآراء يلعب بها الأجنبي ويسيرها في الطريق الذي يختار.

فلا قوام لأمة ولا سلامة لبلاد بقوة العقيدة الوطنية، ولا تدرك الشعوب هذه القوة إلا إذا كانت شديدة الحكم على من يتلاعبون بالوطنية، قاسية في تأديبهم ومعاقبتهم.

سمعت البعض يقول عني: إني شديد في تقريع من خالفوا الواجب الوطني ومالوا عن مصلحة البلاد، فأجيبهم اليوم بأنه إذا صح التسامح في بعض الأمور وفي ظروف معينة، فإنَّ التسامح في الوطنية إعدام لها وقضاء عليها، وإن من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان.

سياسة المغالطة

ينادي البعض في هذه الأيام بأن كلمة الاستقلال توجع الإنجليز، وأنه أشير عليهم من بعض أنصار مصر في إنجلترا بأن الأصلح والأوفق الاكتفاء بطلب الإصلاح وإهمال مسألة الجلاء والاستقلال، أو على الأقل تأجيلها إلى حين، ويعمل ذلك البعض لترويج هذا الرأي، ويندفع في طريقه طاعنًا في المطالبين بالاستقلال قائلًا: إنهم متطرفون!

وإني مفصح الآن أمام الأمة كلها عن رأيي في هذه السياسة التي يتوهم ذلك البعض أنها أكبر ضرب من ضروب الدهاء.

أحرار الإنجليز ومصر

إنَّ العمل بآراء الإنجليز الذين يشتغلون بمسألة مصر في إنجلترا ليس مما يطالب به مصري؛ لأن هؤلاء الإنجليز يعملون لخدمة إنجلترا بالذات، فهم يريدون أن تكون سياسة بلادهم سياسة لين ومهارة بدلًا من أن تكون سياسة شدة وصلابة، وهم إن اتفقوا معنا في بعض المسائل قد يختلفون في الجواهر، ولذلك نرى بعضهم يرى بمزيد الاستياء الحركة الوطنية الداعية إلى الاستقلال.

فنحن مسلوبون والإنجليز هم السالبون، ونحن طلاب حق مقدس والإنجليز هم مغتصبو هذا الحق، فلا سبيل إلى الاتفاق بيننا وبينهم إلا باعترافهم بحقنا ورده إلينا.

أمَّا القائلون بأنه يتم الاتفاق بين المصريين والإنجليز على أساس تضحية الشرف البريطاني، وتضحية استقلال مصر؛ أي خيانة المصريين لوطنهم وخيانة الإنجليز لشرفهم ووعودهم وعهودهم، فإنما يوجهون إلى الأمتين أكبر مسبة ويطلبون اتفاقًا باطلًا، وأي احترام لعقد أساسه الخيانة الصريحة؟ إننا نشكر كل إنسان ينصف مصر ويعترف بحقوقها كلها أو بعضها، ولكنا لا نتقيد برأي أحد ولا نتأثر بسياسة خاصة؛ بل يجب أن نكون خدام العقيدة الصحيحة السليمة، خدام العقيدة الوطنية.

فإن قال المنتصرون لمصر في بعض أمورها من أحرار الإنجليز: إن المطالبة بالاستقلال نؤلم قومهم وطالبونا بالعدول عنها، وجب على كل مصري أن يجيبهم قائلًا: {لكم دينكم ولي دين}.

فساد سياسة المغالطة

يتوهم أنصار سياسة المغالطة أنهم مهرة قادرون وسياسيون محنكون، فلذلك هم يريدون أن يخدعوا الدولة الإنجليزية ويغلبوها بقوة الدهاء، هم يقولون: «لنهجر طلب الاستقلال ولنطالب الإنجليز بالإصلاحات الداخية مثل تأسيس مجلس نيابي، ونشر التعليم حتى إذا صرنا أصحاب الحول والطول في البلاد قلنا لهم: «انجلوا عنها» فلا يستطيعون إلا أن ينجلوا خاضعين ممتثلين».

اللّٰهم إني أعترف بأني لست من المهرة في السياسة حتى أدبر مثل هذا التدبير وأصرح بأنه لم يخطر لي لحظة واحدة على بال بأني قادر على أن أصرع السياسة الإنجليزية بمثل هذه المهارة الفائقة، كما أني مع عداوتي الأكيدة للاحتلال، لا أرى

الإنجليز قد تحولوا بسرعة البرق أطفالًا صغارًا حتى تدخل عليهم هذه الحيلة المضحكة.

باطلًا يعتقد البسطاء أن الإنجليز مع كونهم ينوون البقاء في مصر يقبلون منح أهلها حكومة دستورية؛ لأنه لو جاز ذلك لكان وجودهم في هذه الديار يوم يؤسس فيها مجلس نيابي تام واسع السلطان نافذ الكلمة لغوًا، ولأصبحوا في هذا القطر لاعبين.

إن إعطاء المصريين مجلسًا نيابيًّا حقيقًا -لا صورة يراد بها السخرية وذر الرماد في العيون- هو تجريد للاحتلال من كل سلطة، فلا يستطيع المعتمد البريطاني إبقاء مثل دنلوب في نظارة المعارف مع سخط الأمة كلها عليه، ولا يمكن تعيين مثل المستر هيل في مدرسة الحقوق والأكفاء من المصريين يعدون بالعشرات إن لم نقل بالمئات، ولا يقدر أن يطلب أربعمائة ألف جنيه لبناء ثكنات للجيش البريطاني والبلاد في أزمة شديدة وحاجتها للمال ظاهرة للعيان، ولا يتيسر له صرف تلك الاعتمادات الطائلة للسودان ومصر في أشد الحاجات إليها، ولا يجد سبيلًا لمسخ الحكومة الأهلية وتمكين الإنجليز من كل فروعها، ومحاربة الأمة في كل ميولها وسلبها جميع حقوقها.

إنما تساعد إنجلترا بكل قواتها على تأسيس حكومة دستورية في هذه الديار يوم تنوي حقيقة الجلاء عن مصر: ولذلك طلبت دائمًا المجلس النيابي مقرونًا بطلب الاستقلال.

ألا إن الخطة التي وضعتها الحكومة الإنجليزية عندما احتلت هذا القطر هي ترشيح المصريين لأن يحكموا أنفسهم، وإقامة معالم الدستور بينهم، ثم الجلاء عن بلادهم، هي خطة متماسكة كل التماسك، ولا يمكن تنفيذ مبدأ من مبادئها دون المبدأين الآخرين، فترشيح المصريين لأن يحكموا أنفسهم يجعلهم أقوياء أشداء راقين في الشعور الوطني، فلا يرضون بحكم الأجنبي، ومنحهم مجلسًا نيابيًّا يحصر السلطة في أيديهم فلا يبقى للإنجليز بجانبهم عمل ما.

ولذلك صرحت أيها السادة بفساد سياسة المغالطة وبضررها الشديد على مصر والمصريين؛ لأنها تؤدي إلى اعتراف فريق من الأمة بقبول الاحتلال وتظهره بمظهر الضعب الشديد ولا تثمر ثمرة ما، هذا فضلًا عن كونها قاتلة للروح الوطنية بإبعادها المصريين عن ذكر الاستقلال والتعلق به.

سياستنا

أسمع المعترضين يقولون: وبم تمتاز سياستكم على سياستهم وما ثمراتها؟

فأجيب بأن سياستنا هي سياسة الصراحة والمناداة بالحق والدعوة للاستقلال، وهي وحدها الموصلة إلى كل الغايات الحسان، فالصراحة وقول الحق من الخلال التي تحمل الحاكم على احترام المحكوم.

فالإنجليزي لا يشك في أن كافة المصريين يودون الاستقلال من أعماق قلوبهم، فإذا رأى بعضهم يقول عكس ذلك ويتحبب إليه ويطعن فيمن يخالفونه في خطته عرف أنه منافق، واحتقره ورمى الأمة بعدم الاستعداد للاستقلال.

وقد قال غمبتا حقًّا وصدقًا: «لأجل أن تنال محبة الإنجليز يجب أن تنال احترامهم».

إن الإنجليز أنفسهم في حاجة لمن يسمعونهم الحقيقة الصارخة، وهي أن أساءتهم وآلمتهم في الظهر، فإنها أفيد في الواقع من نفاق المنافقين وكذب الكاذبين.

أليس أولئك المنافقون هم الذين أدخلوا في نفس اللورد كرومر اعتقادات كاذبة بشأن الأمة المصرية، فاعتدى عليها قولًا وفعلًا وفر بيده هاوية بينها وبينه بفظيعة دنشواي ويسبها في وطنها ودينها حتى فارقها وألسنتها تشيعه بالسخط الشديد؟

فمن من الإنجليز يرضى لشرف بلاده ومصلحتها أن يكون كل عهدها في مصر كرومريًّا؟ ألا يقول معنا بضميره -إن لم يقل بلسانه-: إن الصراحة والصدق هما أمتن أساس لأشرف سياسة.

الاستقلال والوصول إليه

إن الذين يطالبوننا بعدم ذكر الاستقلال إنما يريدون أن تموت الروح الوطنية في مصر؛ أي أن تموت الأمة المصرية؛ لأن حياة هذه الأمة ومستقبلها مرتبطان بمقدار قوة هذه الروح في الشعب.

يتساءل البعض عن الوسيلة الموصلة إلى الاستقلال، وهذا تاريخ الشعوب البشرية يدلهم على أن الوسيلة الموصلة إلى الاستقلال تنحصر في بث روح الوطنية الصحيحة والشهامة والإقدام في الأمة، وإعلاء ملكتها، وإيجاد حب السؤدد والرفعة، ومسابقة الأمم الراقية، وجعل الاستقلال رائدها.

فإذا تمكنت هذه الروح وتلك الميول من كل مصري فتحت المدارس العلمية والصناعية والتجارية والزراعية في كل مكان، وظهرت آثار النخوة والهمة والتضامن في كل جهة وناحية، واتحدت الأمة في الغايات والمقاصد وازدادت ثروتها في المال والعلم والوطنية والوئام، وقضت على كل عمال الخصام والانقسام، وصارت أمة من أقوى الأمم فعلًا، واضطرت إنجلترا يومئذ لأن تتفق معها على الجلاء والاستقلال؛ تفضيلًا لمودتها على عداوتها؛ لأن أمة تبلغ هذا الشأن لا تلبث أن تستخدم الحوادث -وما الحوادث مسيرة بإرادة دولة أو برغبة إنسان- فتنال استقلالها رغمًا من كل معارض فيه.

فالدعوة للاستقلال وبث الروح الوطنية الطاهرة، هما المؤديان إلى تحقيق آمال الأمة المصرية، فليكن معتقد المصريين جميعًا أن نجاة مصر لا تكون إلا بهمم

المصريين، وإن ارتقاءنا موكول إلى عزائمنا، فلنطلب النهوض من أنفسنا، ولنعمل له بالهمة والصدق والاتحاد.

يقول البعض: إن المناداة بالوطنية كلام في كلام. نسي ذلك القائل أن أهم الأعمال البشرية وأرقى الجهود الإنسانية تنحصر في إدخال عقائد جديدة في النفوس؛ لأن العقيدة تحرك الجبال.

فإدخال الروح الوطنية في نفوس المصريين لتجتمع كلمتهم حول الوطن العزيز ويتفقوا في المطالبة بمجده واستقلاله، لهو أكبر الأعمال.

ومن قال ضد ذلك فقد أنكر الديانات وتأثيرها، والتاريخ وأحكامه، والعوامل الفعالة في الشعوب كلها.

العالم ومصر

أيها السادة:

عرف المصريون أجمعون أن اعتقاد العالم فيهم قد تغير، وأنه أصبح يرى فيهم أمة حية رشيدة بعد أن كان يعتقد فيهم ضد ذلك، ولماذا؟

أليس لأنه علم أنهم محبون لوطنهم راغبون في خيره واستقلاله، وأن الحركة الوطنية المصرية في نمو مستمر؟!

ليقل لنا الطاعنون فينا: أكانت تبلغ هذه الحركة الوطنية شأوها الحالي لو لم تكن قد سيرت بقوة وصراحة صارمة لا محاباة فيها؟ أليس من الحقوق الطبيعية لمن سلب حقه أن يعلو صوته بدجة صوت سالبه، إن لم يرتفع فوقه؟!

فأي لوم يوجه إلينا أننا في أقوالنا وكتاباتنا وأفعالنا نذكر الأمة الإنجليزية بالكرامة والاحتلام، فهل فعل المحبون للاستعمار من الإنجليز فعلنا؟ هل قالوا مثل قولنا؟ هل كتبوا مثل ما كتبنا؟

كلا وألف مرة كلا؛ إنهم ما أسمعونا إلا الشتائم والمطاعن البذئية والتهم الباطلة؛ هذا شيخ ساستهم «لورد كرومر» أبت عليه آدابه وتجاربه وخبرته أن يترك مصر دون أن يسب أهلها جميعًا ويلقبهم بالعميان ويقضي عليهم بالذل إلى أبد الزمان، فهل قام مصري واحد يسب الأمة الإنجليزية كما سب لورد كرومر الأمة المصرية؟ هل خالف واحد منا الأدب والكمال، أو نسي سمو القضية التي نخدمها وقلد اللورد فيما قال.

لا ريب في أن العدو نفسه يجيب سلبًا أمام ضميره ويعترض بأن المطالبين باستقلال مصر ساروا في طريقهم والحمية والحكمة عندهم متلازمتان.

المعارضة الوطنية والحكومة الإنجليزية

أيها السادة:

إنَّ الحكومة الإنجليزية التي فخارها في وطنها الجدل والمناقشة والسعي وراء الحقيقة تعلن عجزها في مصر إذا جارت أولئك المضطربين من الحركة الوطنية النادبين سوء حظهم؛ لوجود أفراد في هذه الأمة يقولون الحق جهارًا ولا يخافون فيه لومة لائم؛ لأن الحكومة القوية تزداد قوة بفضل المعارضين الواقفين لها بالمرصاد المنادين بسيئاتها، المشهرين بأغلاطها، الدالين لها على عيوبها، فما بالك بسلطة الرجل الفرد، بسلطة الأجنبي الجاهل بأخلاق الأهالي وميولهم ومطالبهم ورغائبهم؟

أليست هي أحوج السلطات إلى قوة معارضة تقف أمامها موقف الخصم العنيد الذي لا ينزل عن حق، ولا يسكت على عيب، ولا يستر نقصًا، ولا يجامل في خطأ؛ بل ينادي بما يراه ويعتقده، وينتقد الأعمال بصراحة وبطش شديد؟

ألا إن حكومة كحكومة مصر لا يزال شكلها ونظامها أبعد الأشكال والنظم عما يرجوه المصريون لبلادهم ويطلبونه في الصباح والمساء، لأجدر حكومات العالم بأن

تسمع أصوات المخالفين لها وتنظر في انتقاداتهم بعناية لا بتعنت وغيظ، فإن الموقف لا موقف خدمة عامة وعمل للصالح العام، لا موقف خصام وعناد.

تقول بعض الصحف: إن الحكومة تأبى تقرير ذلك الأمر النافع وهذا المشروع المفيد؛ لأنَّ المعارضين أو المتطرفين أو المتحمسين أو أعداء إنجلترا في مصر طلبوا ذلك الأمر وهذا المشروع، وأن المسألة صارت إلى المشاكسة والعناد والمبالغة في النكاية بالخصم.

ومثل هذا القول هو أكبر مسبة توجه إلى رجال الحكم!

إنَّ الحكومة الصالحة العاملة لخير الرعية هي التي تلتقط الحقيقة أني وجدتها، وتعمل بالرشد والصواب ولو كان خصمها هو مرشدها، فهي تزداد قوة على قوتها ونفوذًا عند الرعية إذا اتبعت رأي خصمها متى كان حقًّا؛ لأنها تثبت بذلك أنها حكومة خير ورشاد، لا حكومة طيش وأهواء.

أمَّا إذا اعتقد الجمهور في الحكومة أنها لا تعمل إلا ما تريد، وأنها تهمل كل صوت يرتفع بالحق ما دام قائله ليس من مملقيها، فإن مقامها يسقط في نظر الناس ويسيء الكل الاعتقاد فيها، وتكون قد أوجدت بنفسها وبإرادتها الشقاق والافتراق بينها وبين المحكومين.

أي معنى لافتخار الإنجليز بسيادة حرية القول وحرية الأقلام في مصر إذا كانت هذه الحرية لا تفيد الحكومة شيئًا ولا تصلح المعوج من أمورها؟ وهل القصد من هذه الحرية أن يسمح للمصريين بأن يبكوا استقلالهم وينادوا بالويل والثبور على سالبيه ليس إلا؟

اللّٰهم إن حرية لا تعطي الأمة حقًّا في إدارة شئون البلاد، ولا تجعل للناطقين باسم الشعب سلطانًا أدبيًّا محترمًا عند الحاكمين، لحرية أجنبية عن حرية الشعوب المتمدنة ولإهانة حقيقية للأمة تقدم إليها في شكل نعمة.

سيئات المحتلين وفساد حكمهم

ماذا يريد الإنجليز منا؟ أيريدون أن نسمي سيئاتهم حسنات ونصفق لضياع حقوقنا واستيلائهم على بلادنا، وتجريدهم إيانا من كل سلطة ونفوذ؟ هل كانوا يسرون بمثل هذا الحال لو كانت بلادهم محتلة بدولة أجنبية؟

اتفاقية السودان

مَن من المصريين يذكر اتفاقية السودان ويشكر المحتلين؟ وكيف يشكرهم وهم قد ضغطوا على حكومة في قبضتهم فأتت ما أرادوا مع مخالفة الأمر للفرمانات السلطانية وبطلانه من الوجهة القانونية؟

من ذا الذي يمدح هذه السياسية؛ سياسة القوة والجبروت التي أنكرت حقوق مصر في السودان فعلًا بعد أن روينا أرضه بدمائنا الغالية وأنفقنا عليه الأموال الطائلة؟

أين العدل؟

أي مصري يرضى عن قوم لا يعرفون العدل والإنصاف والمساواة، وتلك الكلمات الضخمة والمعاني الفخمة إلا إذا كان الأمر متعلقًا بمصري، أما إذا كان له مساس بإنجليزي، فلا عدل ولا إنصاف ولا مساواة!

أليست الوكالة البريطانية هي التي أقامت الدنيا وأقعدتها يوم ادعى أمامها أحد الأرمن بأن أخاه سجين في سراي رأس التين وأنه يُعذَّب بغير حق؟ ألم تنتدب يومئذ المستر شابمن للتحقيق وتفتيش السراي؛ أي القيام بعمل لم نسمع بمثله في حكومة أخرى؟ ألم تقل يومئذ في الجرائد الخادمة لسياستها: إن هذا أكبر مظهر من مظاهر العدل، وإنه يحق للمصريين أن يشكروا المحتلين ليلًا ونهارًا ويرتلوا آيات الثناء عليهم؟

فأين هذا العزم اليوم؟ أين تلك الهمة العالية في تأييد العدل وعدم التمييز بين الصغير والكبير؟

كيف سكنت عواطف المدنية والإنسانية والإنصاف والمساواة مرة واحدة في قلوب السادة الإنجليز لما اتهم عالم من كبار العلماء الفرنسيين مستر «دنلوب» بتهم شنيعة يأبى الحر قبولها والسكوت عليها؟

أين المظهر العادل للعدل أيها المحتلون؟ أين أبناء الأمة التي تعد من أكبر مفاخرها عدم التستر على مرتكب أثيم؟ أين اختفوا؟!

أين هم لنسمعهم الحق الذي لا ريب فيه ونقول لهم بصوت جهير: إن عدم محاكمة دنلوب بعد الفضائح التي أعلنها المسيو «لامبير» معرة كبرى على الاحتلال والمحتلين!

ينسب البعض سكوتهم أمام هذه التهم الصريحة إلى أنهم لا يريدون إرضاء الرأي العام أو الظهور أمامه بمظهر الضعف.

حقًّا إنها لحجة تضحك، وإنها لسياسة لا ترضاها لنفسها حكومة «بهنزين»، أيظن المسيطرون من الإنجليز أن إخراج دنلوب من المعارف أضر بالسياسة الإنجليزية من بقائه!

إننا كنا نعتقد أنهم أذكى وأفطن من أن يقولوا ذلك، وإلا فكيف فاتهم أن بقاء دنلوب هو أكبر وصمة للاحتلال، وأننا لو كنا نريد تحقير الحكم البريطاني في مصر لما طلبنا منهم أكثر من بقاء دنلوب بعدتهم الأستاذ لمبير، أليس بقاؤه أكبر دليل نقدمه للأمة على أنه آن لها أن تترك مدارس الحكومة خاوية لا يقصدها طالب، وتؤسس هي مدارس لأبنائها بأموالها وهمم القادرين من رجالها لتنال الاستقلال العلمي والأدبي، وتستريح من أعمال دنلوب ومساعيه!

إذا كان الأستاذ لامبير يقرر أن خطة دنلوب هي التي دفعت بطلاب الحقوق إلى صفوف الوطنيين فصاروا في مقدمتها، فكيف لا يدرك الإنجليز أننا لو كنا لا نرمي إلا إلى جمع كافة القوى الحية ضدهم، وأن هذه طلبتنا الوحيدة، وأننا لا نريد الخير لبلادنا ولا نطلب الإصلاح، لابتهجنا ببقاء دنلوب عاملًا على زيادة الوطنيين المصريين ومجدًّا في بث روح العداء في قلوب الناشئين للإنجليز واحتلالهم! إن الأمة المصرية تنظر اليوم بمزيد الاهتمام إلى ما تنوي الوكالة البريطانية عمله مع دنلوب، فإن هي تركته وشأنه علم من لم يكن يعلم في هذا القطر وفي غيره من الأقطار أن العدل خيال في مصر لا حقيقة، وأن الإنجليز يغفرون لرجالهم كل السيئات ويتربصون للمصريين فيعاقبونهم على أصغر صغيرة.

فإذا كانت هذه هي النتيجة التي يعمل لها المعتمد الإنجليزي الجديد فليفعل، فإنما هو يهدم بيمينه البقية الباقية من نفوذ بلاده عند المغرورين الذي لم يسيئوا بها الظن تمامًا، ويقوي عقدة الذين لا يرون في نواياها ومراميها شيئًا من الخير لمصر والمصريين.

محاربة الأكفاء من المصريين

كيف يطالب المصريون بأن يحسنوا الظن بالمحتلين وهؤلاء هم الذين يدعونهم كل يوم إلى إساءة الظن بهم.

كيف يصدق العلماء والفضلاء والأكفاء من المصريين أن الإنجليز يريدون حقيقة لهذه البلاد التقدم والارتقاء، وهذا مستر دنلوب يأمر كل مدير لمدرسة عالية بأن يطعن في كفاءة المصريين الذين يطلبون وظائف التدريس!

وإذا تركنا المستر دنلوب وارتقينا إلى رئيسه الأعلى معتمد إنجلترا في مصر، فماذا نجد من نياته! نجد أن السير إلدون غورست قد عين المستر هيل مديرًا لمدرسة الحقوق، وسخر بذلك من المصريين عامة ومن الأكفاء خاصة.

ألم يقل لهم بلسان الحال: «إني لأسخر من معارفكم وآدابكم وكفاءتكم واستعدادكم وخبرتكم وشهاداتكم؛ لأنكم مصريون وأقدم عليكم من هو دون أصغركم علمًا وفضلًا وخبرة لأنه إنجليزي؟».

فهل بعد هذا يطالب المصريون بأن يحسنوا الظن بالإنجليز؟ وهل هناك عداء صريح من قوم لآخرين أكبر من هذا العداء؟ وهل يليق بشرف دولة كبرى كالدولة الإنجليزية أن تحارب المصريين بمثل هذه الصغائر وهي التي أقسمت أمام العالم كله أن جل رغائبها إعداد المصريين لأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم؟

ومتى يتسنى لهم تلك القاعدة السائدة في السياسة الإنجليزية بمصر، هي تجريد المصريين من كل سلطة، وإبعادهم عن كل منصب ذي عمل، والاستعانة بالضعفاء والمارقين منهم على تمثيل مصر في المناصب التي يشغلونها بأسوأ صورة.

دنشواي

يقول سير إدوارد غراي بأعلى صوته في مجلس العموم الإنجليزي: إن لورد كرومر لم يعامل المصريين كأمة منحطة، فماذا كان يريد أن يعمل اللورد ليعترف بأنه عاملهم كذلك؟

أليست دنشواي وحدها بكافية لأن تثبت مدى الدهور والأجيال أن الإنجليز أهانوا المصريين إهانة قاسية لا تنسى أبدًا، ولا يمكن اختلاف اثنين من المنصفين في الحكم عليها؟

ينادي الساسة الإنجليز بأن الحكم في دنشواي كان سياسيًّا وكان يقصد به تأديب الأمة، وإذا طلبت الجماهير العفو عن المسجونين بسبب هذه الحادثة قالوا: «إنما أنتم تطلبون العفو لتعدوه انتصارًا على السياسة الإنجليزية».

فهل هذا هو العدل الذي تجود به علينا المدنية البريطانية؟ هل هذا هو الإنصاف الذي تريد أن تعلمنا إياه الدولة الإنجليزية؟ أيعاقب أهالي دنشواي بتلك الشدة

المتناهية لأن الأمة لم تكن مع الإنجليز في حادثة العقبة، وهل الحكومة التي تخلط بين السياسة والعدل إلى هذا الحد فتعاقب البريء وتكافئ المجرم تستحق أن يمدحها مادح ويثني عليها إنسان؟ وكيف يدهشها قيام المعارضين في وجهها واعتراضهم عليها بكل شدة وقوة؟

إننا لو كنا نريد دوام العداء والنفور واستحكام الشقاق والتنازع لطلبنا بقاء مسجوني دنشواي في سجونهم الأعوام الطوال؛ لأنه كلما مرت السنون وهم على حالهم تجددت آلام الأمة بما لا يكيف، وجرى ذكر دنشواي على كل لسان، وهكذا سياسة العناد لا تثمر إلا عكس المقصود منها ولا تؤدي إلا إلى ضد الغاية المطلوبة.

إنَّ الرجال لا يحكمون بمثل هذه السياسة ولا تدبر شئونهم بمثل هذا الاعتساف.

إذا كان الإنجليز يجهلون أحوال المصريين وما يدور بينهم، فليعلموا أن في هذه الأمة رجالًا مستنيرين رشيدين يعادلون أكفأ العقلاء من الإنجليز، وأنهم يغارون على الحق والعدل، ولا يرضون بأن تكون الأحكام في البلاد قائمة على الغايات والأهواء، وهؤلاء الرجال هم القوة المفكرة التي تحترمها كل حكومة في العالم وتسترشد بآرائها في المواقف الحرجة.

إننا نقدم العدل والرحمة على السياسة، ولذلك طلبنا ونطلب بأعلى أصواتنا العفو عن مسجوني دنشواي، ونقول بكل صراحة: إن السياسة الرشيدة هي التي تعمل لتخفف الآلام الناشئة من هذه الحادثة الموجعة؛ لا العمل على تقويتها وزيادتها بدعوى أن طلاب العفو ليسوا من أنصار الاحتلال!

ألا فاقرأوا معاشر الإنجليز التاريخ الإسلامي، وانظروا في أعمال أولئك الخلفاء العظماء الذين كان الواحد منهم ينشد الحقيقة في كل وقت وفي كل مكان ويمتثل للحق ولو كان قائله من أحقر الناس.

فخليق بالإنجليز وهم الذين يدعون أمن مدنيتهم سادت كل مدنية أن يذكروا أن رجال المدنية الإسلامية لم يكونوا ليقولوا: «السياسة فوق الحق». بل كانوا يقولون ويؤيدون هذا القول بألف دليل ودليل: الحق فوق كل شيء.

الثروة والأزمة

أيها السادة، يفاخرنا الإنجليز على الدوام بأنهم أغنوا البلاد وملأوها ذهبًا حتى حدثت الأزمة الأخيرة وخفت هذا الصوت الذي صمت من سماعه الآذان أعوامًا طوالًا.

فما قيمة الثروة التي يفاخرون بها بجانب الحرية الشخصية والعمومية وسيادة المصري في بلاده واستقلاله في وطنه؟ ومن من المصريين لا يفضل أن يكون أفقر الناس جميعًا وحكومة بلاده قائمة على العدل الصحيح على أن يكون أغناهم وأثراهم ويهدد من المحتلين بعقوبات دنشواي؟

وإذا كان من المسلم أن ارتفاع أثمان أراضي الزراعة تابع لثمن القطن، وأن هذا خاضع لطلبات العالم ولحاجة الناس للقطن المصري بنوع خاص ولقلة المحصول الأمريكي وللمضاربة، فما أثر الإنجليز في هذه الثروة؟

لا شك أنه جرت إصلاحات جمة في الري، وأن الأعمال التي بدئ بها في عهد الخديويين السابقين تقدمت في العهد الحاضر، ولكن هذا الإصلاح في الري ليس مزية خاصة للحكم البريطاني، ثم ألم يكن هذا من فائدة الإنجليز أكثر مما هو في فائدتنا؟ ألم يكن من مصلحتهم إرضاء دائني مصر وفتح السودان وإصلاحه بأموال مصر.

ومن الذي ينكر اليوم أن الأزمة المالية الحاضرة ناشئة عن فوضى البورصة وعن كثرة الشركات التي دبرتها اليد التي قيدت الشركات المؤسسة بمقتضى القانون المصري بقيود جمة؛ لإيجاد أسهم للتأسيس حتى تؤسس الشركات كلها بمقتضى القانون الإنجليزي.

من الذي ينكر أنه كان في استطاعة الإنجليز أن يطلبوا من الدول وضع قانون للبورصة ويقيدوا السماسرة والشركات بقيود متينة صيانة لمصالح البلاد.

وأي خلل في المالية المصرية أكبر من الذي فضحه المستشار المالي السابق نفسه حين أعلن أن مصر خسرت (٧٠٠٠٠) جنيه في كل مليون اشترت به أسهم الترنسفال أو القونصليد الإنجليزي، فهل كانت تجري هذه الأمور كلها لو كان للأمة مجلس نيابي يراقب أعمال الحكومة، وكانت الحكومة مؤلفة من عناصر أهلية وليس للأجنبي عليها سيطرة؟ ومن ذا الذي يتغنى بعد الآن بالإصلاح المالي البريطاني في هذا القطر.

إنَّ الذي يفاخر بزيادة الثروة وبوصول مالية الحكومة المصرية إلى مركز سام يجب عليه قبل كل شيء أن يعدد الأعمال العامة والمنافع المختلفة التي عادت على القطر من هذه الزيادة.

فهل يستطيع الإنجليز أن يدعوا أنهم رقوا الفلاحين «أصحاب الجلاليب الزرقاء»، ونشروا أنوار المعارف بينهم وهم الذين سدوا أبواب المدارس في وجوههم وقالوا لهم: «حكمنا على أولادكم بأن يكونوا فقراء تعسين وأن لا يتسلحوا أبدًا بسلاح العلم».

هل من مفاخر العهد البريطاني أن ينفق على المجانية ابتداء من هذا العام (١٦٠٠ جنيه) ليس إلا، وميزانية الحكومة بلغت خمسة عشر مليونًا من الجنيهات؛ على حين أن التعليم كان مجانًا في كافة مدارس مصر يوم لم تكن ميزانية الحكومة تزيد عن المليونين؟

هل يقدر الإنجليز أن يدعوا أنهم أصلحوا الحالة الصحية في البلاد وغيروا من معيشة الأهالي، وأن مدينة العاصمة صارت نظيفة فاخرة لا يجد المتنقل فيها محلًّا للانتقاد في فصل من فصول السنة؟ هل لهم أن يدعوا أنهم حموا الأطفال من الأمراض المختلفة التي تقتلهم مئات وألوفًا؟

فما فائدة الأموال التي تجمع والخزينة التي تملأ بالذهب الوهاج إذا كانت الأسوار قائمة بين الفقراء والعلم، والأحوال الصحية على أسوأ حال، والعدل مزعزع الأركان، والمصري لا يملك في بلاده نفوذًا، ولا يسمع له صوت، والأمن مختل أي اختلال؟

الأمن العام

دعا الإنجليز حب نزع السلطة من المصريين إلى تدمير الإدارة المصرية تدميرًا حقيقًا بإحلال سلطة المفتش محل سلطة المدير، فصار الأشقياء لا يخافون الحكومة؛ لأن قوتها الحقيقية تلاشت من أمامهم، وصرنا نسمع بحوادث القتل والفتك في كل بلد، مما أذهل الناس جميعًا، وقد اضطرب المحتلون في التشريع اضطرابًا عجيبًا، فتراهم يغيرون القوانين ويقلبون المبادئ التشريعية بسرعة فائقة كأنهم يبدلون في مواد لائحة من لوائح البوليس والمخالفات، لا في قوانين أساسية يساس بها شعب كبير، وهم اليوم يطلبون تقرير النفي الإداري الأمر الذي أسخط الأمة كلها وأظهر فشلهم الفاضح.

وهذا خلل كبير في إدارة شئون مصر؛ فإن كل بلاد حرمت قوة تشريعية حقيقية تكون خاضعة لسياسة الأهواء.

الحكومة الأهلية

لذلك قلنا: إن المصريين لا يرضون بإصلاحات سطحية يعطونها ذرًّا للرمال في العيون؛ بل إنهم لا يطمئنون على أنفسهم وبلادهم إلا إذا عادت الحكومة الأهلية بسلطتها وسطوتها ورهبتها، وكانت الحكومة دستورية خاضعة لمبادئ التمدن الحديث ومستمدة قوتها من الشعب وعاملة برغائبه ممتثلة لأوامره.

وإذا كان بعض الإنجليز يرون أن ما عمل في مصر في الخمسة والعشرين عامًا الأخيرة كافيًا لتشريف إنجلترا ولائقًا بمدنيتها وبما ينتظر منها، فإننا نعتقد أن إنجلترا

قادرة على أن تعمل أحسن مما عملت وتحترم شرفها وعهودها وتاريخها وتقاليدها بخطة أخرى غير الخطة التي اتبعتها.

إنَّ الإنجليز الذين يتألمون لمطالبتنا باحترام تعهدات الملكة فيكتوريا وتصريحات كبار وزرائها ينسون أن مخالفة هذه التعهدات وتلك التصريحات أشد إيلامًا لهم في الحقيقة من كل انتقاد يوجه إليهم، وأن الذي يدعوهم لاتباع سياسة العدل والمدنية إنما يدعوهم لما هو أليق بهم وبشرف دولتهم وعظمتهم.

كيف لا ومطاعن الطاعنين وشتائم الشاتمين لا تؤثر في شرف إنجلترا وسمعتها عشر معشار ما يؤثر قول العالم المتمدن عنها أنها تعادي الوطنيين المصريين وتحاربهم لأنهم يطلبون اتباع مبادئ الوطنية وتعميم التعليم وإقامة الدستور مقام الظلم والاعتساف -وينادي بأنهم لا يرضون بحكومة الرجل الفرد، سواء كان مصريًّا أو أجنبيًّا، وأن مداركهم ارتقت إلى حد أنهم يعتبرون أنهم من عائلة الشعوب المتمدنة، ويطلبون أن يعاملوا كذلك.

لذلك كان من المؤكد عندنا نجاحنا عاجلًا أو آجلًا؛ لأن الزمان يكفل النجاح لصاحب الحق على الدوام!

أعداء الحزب الوطني والنزلاء

هذه خطتنا أيها السادة وهذه مطالبنا التي نرمي إلى تحقيقها، فهل يقول منصف عادل بأنها غير موافقة لصالح مصر والمصريين.

كلا؛ ولكن عصابة الكتاب الأوربيين في هذه الديار حملت علينا حملة شعواء، ووجهت إلينا من السباب ما لا يتصور صدوره من رجال متمدنين، ورمتنا هذه العصابة بتهم شنيعة لو كان لها نصيب من الحقيقة لكنا من المجرمين.

ولقد يتوهم البعض منا أن هؤلاء الكتاب يعبرون عن أفكار النزلاء الأوربيين في هذه الديار ونزعاتهم، ولكن هذاالوهم باطل؛ لأن أولئك النزلاء يحبون مصر على ما

أعتقد، ويعترفون لها بالجميل ويرجون لها الخير، ولا ينسون أنها البلاد التي لاقوا فيها الإكرام التام والحفاوة الزائدة، ووجدوا تحت سمائها ما يطلبون من كسب عميم وخير وفير.

إنَّ النزلاء الأوربيين يقدرون الوطنية حق قدرها؛ لأنهم يحبون بلادهم حبًّا جمًّا، ويظهرون هذا الحب في كل آن، فمن منا يصدق أن أولئك الذين يعيشون وفخارهم استقلال أوطانهم، ويعتقد الواحد أنه راية بلاده يمثلها أنى كان، وأن الاعتداء عليه اعتداء عليها يجاهدون ضد أمة تنهض مطالبة بالاستقلال وتعمل لزوال الاحتلال!

إني أعتقد اعتقادًا جازمًا أن لنا في النزلاء الأوربيين أصدقاء عديدين، وأن عدد أولئك الأصدقاء يزداد كلما أثبتنا لهم بالدليل والبرهان أننا نريد أن تكون مصر عضوًا عاملًا في جسم الأمم المتمدنة، وأننا نطلب الاستقلال لتكون بلادنا مصدر النور والعرفان في الشرق كله، وأننا لا نريد مطاردة أحد من الناس؛ بل نعد من شرف مصر وامتيازها على غيرها من البلاد أنها ترحب بكل قادم إليها، وتوسع له في ديارها غير خائفة على أبنائها من مزاحمة أو منافسة؛ بل مسرورة بكثرة العاملين وهمم الساعين المجدين.

تهمة الثورة

بماذا طعن الطاعنون فينا؟

قالوا: إننا نريد إحداث ثورة دينية في البلاد، وأنه أوعز إلينا من الأستانة بها.

وهو قول الجاهل أو المتجاهل المتعنت الذي يريد أن يحارب خصومه بكل سلاح؛ إذ كيف يقبل العقل السليم أو يتصور إنسان ذو لب وإدراك أن قادة الأفكار في مصر يعملون لهدم البقية الباقية من استقلال هذه البلاد ويحزبون أوربا بأسرها على مصر والمصريين، ألم نقل مرارًا وتكرارًا: إن كل فتنة تحدث في مصر لا تفيد إلا المحتلين؟ ألم نكن أول الداعين للسكينة المطالبين أبناء وطننا بأن يعملوا بعزم وهمة

وصراحة؛ ولكن مع السكينة والمحافظة على الأمن العام، ألم نجعل أساس سياستنا وقاعدة خطتنا وروح أعمالنا استخدام الوسائل السلمية لنيل حقوقنا والتمسك بالطرق القانونية دون غيرها؟

ومن الذي يستطيع أن يقول: إن للأستانة منفعة في إحداث ثورة في مصر؟ وما الذي يدفعها إلى ذلك؟ أعداوتها للمسيحيين وأسمى وظائف الدولة في قبضتهم؟ وماذا يكون مركز الدولة العلية لو ثارت مصر وضربتها أوربا الضربة القاضية؟ ألا تكون هي المسئولة بالذات عن ذلك إذا صح أنها تحرض على ثورة فيها؟ أو ليس التحريض داعيًا إلى المؤازرة؟ فأي مؤازرة ترضى تركيا أن تقوم لنا بها على أوربا كلها؟

إنَّ القائلين بذلك أعداء متعنتون أو جهلاء لا يدركون معنى ما يقولون؛ لأنَّ المصري الذي يدعو إلى فتنة أو يعمل لها يكون عدوًّا لبلاده، وإذا وجد في العالم دولة تنصح للمصريين باستعمال السكينة وملازمة الحكمة والتبصر فهي الدولة العلية؛ لأنها بلا نزاع أشد الدول غيرة على سلامة مصر وأكثرهن فائدة من عدم ازدياد مصائبها وبلاياها.

تهمة خيانة مصر

رمانا الطاعنون أيضًا بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنعطيها لتركيا كولاية عادية؛ أي أننا نريد تغيير الحاكمين، لا طلب الاستقلال والحكم الذاتي.

وما هذه التهمة إلا تصريح بأن علوم الغرب وآدابه التي نقلت إلى مصر من مدة قرن من الزمان ما زادتنا إلا تمسكًا بالعبودية والمذلة، وأن معرفتنا لحقوق الأمم وواجباتها لم ترشحنا إلا أن نكون عبيدًا أرقاء.

فهذه التهمة هي مسبة للمدنية والمتمدنين وقضاء على الأمة المصرية بأنها لا ترقى أبدًا، ولا تبلغ مبلغ غيرها من الشعوب؛ لأنه إذا كان المتعلمون من أبنائها يطلبون

إحلال نير محل نير، واستبدال استعباد باستعباد، فكيف يطمع طامع في تقدمها وارتقائها ووجود ضمير أهلي لها؟

إنَّ القائلين بذلك يدعون الناس لأن يسخروا من عقولهم ومداركهم لأنَّ الصومالي والحبشي وكافة الأمم التي هي دون الأمة المصرية بمراحل في العلم والأدب والشعور دافعت عن استقلالها أجمل دفاع، وبرهنت للعالم طرًّا أن حب الوطن فطرة فطر الناس عليها، وأن الإنسان لا يحتاج إلى علم ولا إلى أدب ليشعر بهذا الشعور.

فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا، وعلى مسمع من أمم الأرض كلها، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون.

وإذا كانت إنجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العلية وتغير سياستها نحوها تغييرًا محسوسًا، فمن الذي يلوم المصريين على أن يكونوا أقرب الناس من تركيا قولًا وفعلًا، وأن يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا؟

تهمة التضيق في الوطنية

قال أعداؤنا فيما قالوا: إننا ضيقوا الفكر صغار الآمال، وإننا نأبى على الذين ولدوا في مصر واستوطنوها أن يكونوا مصريين، وهذا قول لا يقوم عليه برهان.

إننا إذا قاومنا بكل قوانا تلك الفئة التي قابلت إحسان مصر بالنكران، وأعلنت على البلاد وأهلها حربًا عوانًا، فإننا نميز بينها وبين بقية الشرقيين من ترك وعرب وسوريين الذين اختاروا مصر وطنًا لهم وأحبوها وشاركونا في الآلام والآمال وصاروا مصريين فعلًا.

إننا نستقبل بمزيد السرور والانشراح كل راغب في الدخور في جنسيتنا، معترف بحقوقنا، مقدر لشرف جهادنا، عامل على بلوغ الاستقلال؛ لأننا نريد زيادة قوى الوطن والاستزادة من الأيدي العاملة لخيره ولنفعه ومجده وعظمته.

وإن الأمم التي تخاف دخول الغريب فيها وإنماءه إليها هي الأمم الضعيفة في وطنيتها، المضطرب فؤادها على جامعتها، ونحن اليوم بحمد الله أمة قوية الشعور راقية الإحساس لا تخاف على وطنيتها، فليدخل في الجنسية المصرية من أراد، فإنه إن لم يزدها قوة زادته هي حمية وإقدامًا، وملأت قلبه بحب الحرية والاستقلال.

تهمة التعصب الديني

قال أعداؤنا أيضًا: إننا نخلط الإسلام بالوطنية، ونتكلم دائمًا عن المسلمين، ونطلب إدخال الدين في التعليم، وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم.

فكيف لا تكون إنجلترا وألمانيا متعصبتين؛ وهما الدولتان المتمسكتان بالتعليم الديني في مدارسهما ونتهم نحن بالتعصب الديني؟ لماذا يكون الإنجليزي وطنيًّا وبروتستانتيًّا في آن واحد، ولا يكون المصري المسلم وطنيًّا ومسلمًا؟ ألا تكون الوطنية صحيحة سليمة إلا إذا قضت على الدين ومحبته؟

ألا إنَّ الحقيقة الساطعة التي لا ريب فيها هي أن الوطنية والدين يتفقان؛ بل وقد يكونان متلازمين.

نحن إذا طلبنا إرشاد أمتنا إلى الحقيقة الدينية، فما ذلك إلا لأن الأضاليل والأكاذيب والخزعبلات التي راجت بين العامة باسم الدين قلبت حقيقة هذا الدين، فصار الجهل والتأخر والانحطاط وكل الآفات مما يلقى على الدين وينسب إليه، والدين منه براء.

لذلك كان من المستحيل إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية؛ لأنه لا سبيل لإبادة جيش الباطل الذي ألف ونظم باسم الدين إلا بالدين نفسه.

فالتعليم الديني ليس فرضًا من الوجهة الدينية فحسب؛ بل هو كذلك أيضًا من الوجهة الوطنية؛ لأنه لو وقف المرشد أمام الأهالي ونبههم إلى واجباتهم باسم الوطن والعلم والمصلحة وأجابه الضالون منهم بما عندهم من الاعتقادات الباطلة بأن الدين ينافي ما يقول لما قهرهم واستمالهم إلى فكره إلا إذا أثبت لهم أن الدين ليس ما اعتقدوا؛ بل إن الدين مخالف لتلك الخزعبلات التي آمنوا بها، وأنه متفق مع العلم والوطن تمام الاتفاق.

على أن بث الحقيقة الإسلامية بين المسلمين من أكبر الأسباب الموجدة للتسامح والتقرب من الشعوب الأخرى؛ إذ لا تعصب مع علم ولا نفرة مع نور ورشاد، فمن منفعة العناصر كلها أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقته، وأن تزول أوباء الجهلات والخرافات من بينهم.

تهمة تحريض المسلمين على الدول

لم يكتف الطاعنون فينا بنسبة التهم المتقدمة إلينا؛ بل قالوا: إن الحزب الوطني آلة في يد ألمانيا تحركها ضد فرنسا وإنجلترا لإحداث فتنة في البلاد الإسلامية التابعة لهما، وما قصدوا بهذه التهمة إلا جمع كلمة الدولتين ضدنا وتنفير أصدقائنا العديدين في أوربا منا.

إننا نعلن للملأ كله أن الحزب الوطني مستقل عن كل الدول والحكومات والملوك والأمراء، وأنه إنما طلب سعادة مصر واستقلالها من كل طريق يجده مساعدًا على الوصول إلى الغاية، وليس هناك برهان على إفك أعدائنا أكبر وأقطع من أننا انتقدنا السياسة الألمانية مرارًا وقلنا لها: إن المسلمين لا يصدقون بمحبتها إلا إذا غيرت خطتها في مصر وطلبت حل المسألة المصرية في مؤتمر دولي كما فعلت بشأن مراكش، وشتان ما بين مصر ومراكش في الأهمية ووفرة المصالح الأوربية.

إنَّ المسلمين يخدعون أنفسهم كثيرًا ويسيئون إلى بلادهم حقيقة إذا اعتقدوا أن سلامتهم في الاعتماد على دولة من الدول، وأن لهم أن يناموا على وسادة الأمان والاطمئنان إذا جاملتهم هذه الدولة بكلمة حب وانعطاف لغاية يجهلونها.

إنما سلامتهم في أن يعملوا بأنفسهم لصيانة بلادهم وحمايتها بالعلم والعدل والنظام والدستور. فإن البلاء في أن يكون الإسلام سلاحًا بيد الجاهل الغبي يقتل باسمه البريء من المسلمين وغير المسلمين، ويخرب البلاد ويؤذي العباد قائلًا: «إن هذا من عمل الإسلام».

إن الإسلام بريء من هذه الفظائع، إن الإسلام يقضي بكل قوة على هذه القبائح، الإسلام والجهل عدوان لا يتفقان، فلا إسلام بغير علم وفضل وعدل ومدنية وإنسانية، فلترفع الأمم الإسلامية التي لا تزال قادرة على حماية بلادها وصيانة استقلالها رايته، ولتعمل على اليابان فتعتمد على الجد وحده وتطلب الحياة والسؤدد من جهودها ومساعيها، لا من تعضيد دولة ورعاية حكومة أجنبية.

فإنَّ السياسة التي تدفع بهذه الحكومة لمساعدة أمة إسلامية في ساعة من ساعات حياتها قد تتغير بتغير الظروف والأحوال، فلا تساعدها في ساعة أخرى.

وإنه خير لمرشدي المسلمين والناصحين لهم أن يحملوا على أسباب الفشل والسقوط التي نشأت بينهم، ويحاربوا الجهلاء والأغبياء منهم قبل توجيه الملام إلى الهاجمين عليهم، فإنما الجهل هو الذي دعا الأجنبي لأن يطمع فيهم، ولو نظم المسلمون بلادهم وأثبتوا للعالم أن الإسلام دين مدنية وعمران وقوة ورفعة، لما اعتدى عليه أحد ولخطب ودهم كل إنسان!

الاتحاد والعمل

أيها السادة:

دعا لورد كرومر قبل سفره كافة العناصر الأجنبية للاتحاد ضد المصريين؛ تنفيذًا لسياسة التفريق التي عمل لها طول حياته، فاسمحوا لي أن أدعوكم للاتفاق والاتحاد وإزالة كل سبب للنفور والشقاق بينكم وبين النزلاء، فإن الاتحاد هو القوة الكبرى، ولولاه ما قام الشعب في العالم وما وجد التضامن بين أفراد الهيئة الاجتماعية.

إنه ليحزنكم كثيرًا أن تجدوا المنافقين والخائنين من أبناء البلاد، وهو حال يحزن؛ ولكنه ليس خاصًّا بمصر، بل هو عام في الدنيا كلها، وإذا أحزن الوطنيين الصادقين من جهة، فإنه يسرهم من جهة أخرى؛ لأنه يبعد العناصر الفاسدة من الحركة الوطنية ويجعلها طاهرة خالصة من كل شائبة.

فضموا صفوفكم، وأجمعوا أمركم، واعملوا بجد وهمة، واثبتوا للأعداء والأصدقاء، إننا أحق الأمم بالدستور والاستقلال. إن الوطنية الحقة تقضي على صاحبها بأن يضحي حياته خدمة لوطنه لو دعت الحاجة لذلك، فلنضح جميعًا أحقادنا الذاتية وخصوماتنا الشخصية، ولننس عداواتنا واختلافاتنا أمام المصلحة الوطنية وأمام الوطن المقدس، لننس أشخاصنا ولنترك الطمع في الزعامات والرئاسات ونتبع أحقرنا إذا كان على الحق، فإننا إذا نصرناه نصرنا الوطن والأمة، وإذا خذلناه خذلناهما معًا.

أيها السادة! إنَّ العالم ينظر إلى مصر وما سيكون من أمر حركتها الوطنية، وإن أعداءنا يدبرون ألف تدبير لهدم دعائم هذه الحركة ومحو آثارها.

فاذكروا ذلك على الدوام ليزداد الاتفاق بيننا، وليوجد الإخاء بأسمى معانيه بين صفوفنا.

إني لأدعو كل واحد منكم للدخول في الحزب الوطني، حتى تتسع دائرة العمل لخدمة مصر، ويزداد الطالبون للاستقلال، الممثلون للأمة في همتها ونخوتها واجتماع كلمتها، العاملون على إنالتها شرف الأحياء ومجد الراقين!